

دار
عرفان
للنشر

معتز عرفان

رواية

الدوغمائي ذو اللحية الحمراء

دار عرفان للنشر

الدوغمائي ذو اللحية الحمراء

-1-

في ظلمة الفجر المهيبة، وسط الحقول الواسعة بقرية سخا القابعة في كفر الشيخ، تشعشع الضوء الزائف في منزل العمدة، السيد "أبو حجر"، وتعالت الصرخات بلا توقف، كاشفة عن مأساة العائلة الناجمة عن صعود روحه إلى السماء. وقد خرجت زوجته، السيدة "زهرة" إلى الهواء الطلق لتؤجج نار الصرخات، معبرة عن حسرتها اللامتناهية وحزنها العميق. ووقف إلى جانبها ابنها "سعد"، رابتا على كتفها ومحاولا تهدئتها، لعلها تفلح في التخلص من أزمتها وتوفق في استحضار لوازم القوة التي تمكنها من مسايرة الحياة. وانضمت إليهما الابنة المليحة "حسناء"، بدموعها المنهمرة وقلبها المتصدع، باحثة عن الدفء الذي لم يعد حاضرا وكلمات المواساة التي صارت بغتة في أشد الحاجة إليها. وقد تواصلت العائلة مع الابن الأكبر "ثابت" بسرعة فائقة، ناقلة إليه الأخبار وما يصاحبها من أحزان، لتهطل دموعه مقترنة باستدعاء ذكريات عديدة، كان العقل يختزنها على مدار السنوات، ليطلقها في مثل هذه اللحظات. وبتلقائية بديهية، أجل الابن المقيم بالقاهرة أعماله وأشغاله بأكملها وقرر النزول إلى البلد، ليشرع في اتخاذ الإجراءات اللازمة والقيام بما يجب القيام به في أفضل صورة ممكنة.

الشمس في كبد السماء تنير الوجود، لكن السواد يخيم علي القلوب، وصدمة التلاشي بعد الإنجاز تخيم على العائلة والحضور. في البهو الكبير، يجلس الكثيرون في صمت تام، وعلى وجوههم تبدو مشاعر الحيرة والفقدان، وبينما يتبادلون النظرات والحسرات، تمر عليهم فناجيل القهوة في انسيابية

وتآلف تام. وإذ بغتة تطأ قدما المنتظر أرض المكان، فيصطف الحضور لمقابلة الابن الكبير للمرحوم.

كانت لحيته تسبقه قبل ولوجه أي مكان. كانت طويلة ذات حمرة جلية قادرة على لفت انتباه أي إنسان. وكانت هيبته تتجلى بين الحضور بسهولة وبهاء. ولا شك في أن لحيته كانت تحوطه بالاهتمام، لكنه لأمر ساخر أن نربط بين لحية إنسان وأهميته أو مركزه، فقد نال وضعه بين الأعيان اعتمادا على النفوذ والمال بطبيعة الحال. وكانت أعماله بالقاهرة عديدة ومتنوعة، وكانت تتصل بأراضي البلد الواسعة والتي شكلت المصدر المباشر لفواكه عصائره المعروفة في أنحاء مصر.

يجلس بين الحضور، وسط الصمت والخوف الذي يبث في النفوس بمجرد التعامل معه أو التكلم إليه، حيث أنه كان معروفا باعتزازه الشديد بكلماته وافتخاره بكل ما يصدر عنه. فلم يدخل أحدهم في نقاش حامي الوطيس معه إلا وخرج مغبونا، ولم يرافقه أي إنسان إلا وأحس ببرود شديد وجمود فكري غير مسبوق. ورغم ذلك وقع الكثيرون تحت تأثيره ومنحه الكثير من البسطاء الحق في أن يفعل بهم ما يشاء وأن يسيطر على عقولهم ويقودهم كما يرغب. وقد رسخت ملامح شخصيته في عقولهم لدرجة أنهم قد سعوا باستمرار نحو التعامل معه بحدود والإنصات إلى كل ما يقول دون ردود. وقد شمل سلوكهم كل موقف يذكر وكل أمر يحصر، سواء كان في السراء أو الضراء.

يجلس إلى جانبه أخوه الصغير الذي تزوج من ابنة عمه "جميلة" الصيف الماضي في حفل كبير أحدث ضجة مؤثرة بين أبناء

القرية، بعد أن شهدوا إمكانيات عمدتهم الجليلة. يحدثه بعينين منكسرتين معاتبا إياه على حياته المتحررة التي يعيشها في القاهرة دون رغبة في الزواج، ويخبره بأن أباهما قد أكد على ضرورة زواجه قبل رحيله بأيام. يوضح له أنه قد تزوج سعيا وراء الأنس وراحة البال وأن أختهما ستتزوج هي الأخرى في القريب العاجل لعلها تشعر بالاستقرار والأمان. ينظر إليه "ثابت" بعينين يتطاير منهما شرر يمازجه التعجب والذهول، ليخبره بأن الزواج لا يمثل الحل الأمثل بالنسبة إليه، وأن التكلم حول الأمر في الوقت الحالي لا يعد تصرفا حكيما. فيصمت "سعد" تماما بعد أن تحول لون وجهه إلى اللون الأحمر الذي لطالما رافقه في معظم حواراته مع أخيه البارد.

مر اليوم سريعا بعد أن دفن الرجل في قبر العائلة الذي ضم الكثير من أبنائها الكبار الذين عرفوا في البلد بسطوتهم ونفوذهم وسيطرتهم على الكثير من الأراضي الواسعة التي ميزت القرية على مدار تاريخها الطويل. وقد جلست العائلة تتحدث عن الذكريات والأحداث والحوارات التي جمعتها بالسيد "أبو حجر"، مما أدي إلى تسلل أجواء الحزن والحنين والفقدان إلى مائدة النقاش. ودقت الساعة منتصف الليل، فصعد الجميع إلى الطابق العلوي حيث غرف النوم الواسعة التي كان البيت مميزا بها ومعروفا بجمالها الفتان.

تسلل ضوء الصباح إلي غرف النوم الفاخرة واستيقظ الجميع في بيئة زائفة تجمع بين أوهام النهار الخادعة وحقيقة الوجود الصادمة والتي تقتضي إفناء كل كيان والتخلص من كل إنسان مهما طال به الزمان. وجلس على منضدة الفطور كل من السيدة "زهرة"، و"سعد" وزوجته "جميلة"، و"حسناء" المنهارة.

و"ثابت" ذو الهيئة المهيبة. وقد كانت المنضدة مزودة بخيرات يعجز المرء عن إحصائها، حيث تنوعت أصناف الطعام فوقها لتشمل كل ما تشتهي الأنفس وكل ما يسيل اللعاب معه.

أخذت العائلة تتحدث عن أعمالها المتنوعة والتي لم تكتفِ بالفواكه والعصائر فحسب بل امتدت لتشمل العقارات بأشكالها المتعددة. وعندما اقترح "سعد" على "ثابت" المكوث في البلد ليحل محل أبيه ويتعامل مع الفلاحين، رفض بشدة معبرا عن عدم قدرته على مجاراة الواقع الريفي ومفصحا عن حقيقة أنه قد تآلف مع المجتمع القاهري وأصبح عاجزا عن مغادرته إلا في المرات المعدودة التي يزور فيها البلد من أجل تأدية العمل أو تسوية الأمور الخاصة بالعائلة.

انتفض من مكانه بغتة، وقد اختلطت حمرة لحيته الكثة بأشعة الشمس الذهبية فمنحته رونقا خاصا يليق بكلماته التي بصدد أن تلقي على عائلته المشتتة. أخبر "سعد" بأنه سيوكل إليه إدارة كل ما كان يديره الأب قبل رحيله، وأنه سيبقي في القاهرة كما اعتاد ليدير شئون العائلة القائمة هناك. وقد تابع كلماته ليخبر الحضور بأنه سيرحل عما قريب، على أن يعود بين الحين والآخر ليباشر أداء أخيه الصغير، وأنه في نفس الوقت يثق تماما في قدرته على إدارة الأعمال في أفضل صورة ممكنة.

لم تنبس الأم ببنت شفة، وكأن صدمتها المقترنة برحيل زوجها قد نالت منها فسلبتها حماستها التي كانت تحوطها. وقد خيم الصمت على المكان بعد ما قاله ذو اللحية الحمراء، ومرت الساعات بسرعة فائقة لتعلن أن اليوم قد انتهي وأن وقت النوم قد حان.

-2-

مرت الأيام في لمح البصر، وغادر "ثابت" البلد عائدا إلى موطنه الذي ألفه وأصبح متكيفا معه. لكن الأمور لم تعد كما كانت، فقد تغير شيء ما بداخله، أحس بأن غياب أبيه عن الوجود قد ثبط عزيمته وأطفأ نار حماسته التي لطالما كانت بمثابة الوقود الذي يحفزه ويدفعه إلى الأمام. لكنه حاول بكل ما أوتي من قوة ألا يخضع لسطوة مشاعره التي لطالما نجح وجهه البارد في إخفائها، رغم عدم مفارقتها إياه كأي إنسان آخر.

يجلس في شقته محاطا بالكثير من الكتب التي اعتاد قراءتها منذ صغره حتى أصبح مطلعا على الكثير من مجالات المعرفة التي مكنته من التعامل مع الكثيرين بفطنة وذكاء. ورغم ذلك، لم تنجح معرفته الواسعة في منحه القدرة على تقبل آراء الآخرين أو التفاعل معها، لكنها قد زودته بإحساس التفوق على كل من حوله لدرجة أن غروره قد صنع له منظومة فكرية وأخلاقية تخصه وحده في الكثير من الأحيان.

إن الرجل الذي ترعرع في الريف لم يكن مطلعا على ثقافة بلده وحده، بل تجاوزها بغرابة ومهارة ليصبح مطلعا على الكثير من ثقافات العالم. وقد أعجب بثقافة أوروبا على وجه الخصوص، وكان محبا للسينما والرواية والفن بوجه عام. سافر إلى العديد من الدول، وقع في الغرام أكثر من مرة، صرف النقود كالمجنون من أجل رفاهيته الخاصة، ورغم ذلك لم يؤثر جموحه على أعماله، لأن مساعده الخاص "عامر" كان دائما إلى جانبه.

كان يساعده على التخلص من آثار لياليه الماجنة وبقايا طيشه الذي لا يعرف حدودا. ولم يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب، بل امتد ليشمل الكثير من الأمور التي تخص الاستشارات المتعلقة بالعمل والتنقل بين البلدان وإدارة الحسابات المالية.

ورغم ذلك، لم يكن "ثابت" مغيبا أو غير مسئول، بل كان قادرا على الفصل بين اللهو والعمل، وكان ذا قدرة خاصة على العودة إلى ثوب الوقار الخاص به في لمح البصر، وكأنه ساحر أو ممثل قدير.

يرن جرس الهاتف، فيقطع وتيرة الذكريات التي كانت تتسلل إليه بوفرة وغزارة. يتحدث معه "عامر" عن الأعمال والمسئوليات التي لا تنتهي ولا تعرف حدودا. يخبره بضرورة أن يتماسك وأن يزود نفسه بمواطن القوة والمثابرة، لعله يمضي إلى الأمام ويكمل مسيرته المهنية المشرقة. ينتهي الحديث بينهما بعد أن يخبره "ثابت" بأنه على ما يرام وأنه قادر علي المواصلة والوقوف أمام أعباء الحياة.

ها هي دموعه تتساقط كشلال لا يعرف سكونا، تتساقط بكثرة رغم شهرته بوجهه الخشبي الذي اعتاد إظهاره أمام الناس. إن النفس البشرية هشة مهما حاولت أن تتظاهر بغير ذلك، فالحقيقة تخبرنا بأن الإنسان، مهما كانت تصرفاته ومهما كان جبروته، يعجز عن مغادرة ماهيته التي يحاول دائما أن يخفيها، ويعجز عن الهروب من الضربات التي لا حل لها سوي التقبل والتكيف معها كما هي.

-3-

عزيزي القارئ، اسمح لي أن أمنح "عامر" دور الراوي، لأنه كان دائما على مقربة شديدة من الدوغمائي لدرجة أنه قد صار قادرا على سرد كل تفاصيل شخصيته، والتحدث عن معظم المواقف التي وثقت دوغمائيته والتي لطالما نمت عن تقديس الذات وعدم تقبل الآخر.

كنت دائما بمثابة المساعد الرئيسي للسيد "ثابت"، وكنت علي علم بأدق تفاصيل حياته. وقد صرنا صديقين حميمين مع مرور الوقت، لدرجة أننا قد خرجنا سويا في العديد من المرات بهدف اللهو واللعب. انضممت إلى شركته منذ بدايتها، وكنت قادرا على الإلمام بأمورها والتطرق إلى أدق تفاصيلها، مما ساعدني على بلوغ منزلة خاصة بين أقراني من العاملين بها. وقد حققت نجاحا باهرا في الآونة الأخيرة، فأنتجت الكثير من المشروبات والمنتجات التي تسللت إلى السوق، فاستحوذت عليه وحققت بداخله أعلي الأرباح الممكنة.

لم تكن حياته الخاصة التي كانت العربدة محورها واللهو نغمتها أمرا معروفا للجميع. فقد ألم بها بعض أفراد عائلته ولم تكن موضعا محوريا للحديث، لأنها تخصه وحده، وفي نهاية الأمر، ستعود عليه تبعاتها قبل أي إنسان آخر. وقد كانت عملية تنكيرها وإخفائها عن الناس مسئوليتي المرهقة، والتي اختصني بها، لثقته بي وعلمه بإخلاصي له.

كان يقيم الحفلات الماجنة في شقته الفخمة بالقاهرة الجديدة بين الحين والآخر. كان محبا للتجول والتأمل، وفي نفس الوقت

كانت تأملاته وفلسفاته دائما ما تنتهي بمجون غريب يجمع بين الخيالات والأوهام من جهة والواقع من جهة أخري. كان محبا للعشوائية بداخله، صبغت نظراته الوجود بصبغة سوداوية تستمد سوادها من سواد حبر ثقيل، رأي أن البشر جميعا مآلهم إلى الجحيم بعد كل ما ارتكبوه من جرائم وفظائع يندي لها الجبين. ورغم ذلك لم تمنعه سوداويته من متابعة حياته أو التفاعل مع الجميع. لكنه كان دائما مستعدا لمجابهة شرورهم وقادرا على شم رائحتهم بتلقائية يحسد عليها، مما جنبه الوقوع في شباكهم أو التعثر في التعامل مع زيف كياناتهم. كان يطلق عليها "رائحة الأوغاد"، وبسخرية عجيبة كان يري أنه وغد مثلهم، لأنه منهم وما يسري علي كياناتهم يسهل تطبيقه عليه مثلهم.

تخبرنا الحقيقة بأن العلاقات العاطفية سرعان ما تتحول إلى صراعات محققة، يعبث الوقت بها ويخلق منها أجواء مفعمة بالاضطراب والصراع. لكن علاقات الدوغمائي كانت محتدمة بصورة تفوق المنطق والطبيعة، كان جموده الفكري وعدم إنصاته إلى شريكاته العديدات بمثابة المنبع الرئيسي للتشتت والتوتر. فرغم كثرة علاقاته وتعددها، إلا إنها لم تدم أكثر من أيام معدودة في كل مرة. وكأنه لم يخلق لمثل هذه الأمور، وكأن عقله لم يعهد قط طريقا واضحا إلى الرومانسية التي لطالما تغني بها العشاق، رغم زيفها في الكثير من الأحيان.

تخلق رقصات النسيم الناعمة شعورا رهيفا يلاعبني، فيأخذني إلى السماء في لمح البصر، لأتغنى بسحرها ورونقها الذي لا يضاهي. أجلس بالشرفة بينما أنصت بإخلاص إلى ما تحدثني به نفسي، أتجاوب مع حلقات عقلي الفكرية المفرغة بسذاجة تامة،

يسكن السيد "ثابت" رأسي بصورة غريبة، وكأنني لم أعرف أحدا في حياتي إلا هو وحده. يبدو أنني قد أصبحت في حاجة إلى زوجة تشغلني وتخرجني من هذا الإطار العجيب والذي غالبا ما تمثل غرابة شخصية مديري المصدر الرئيسي لتحفيزه.

أنتقل إلى الداخل لأستلقي على سريري، أضع رأسي على وسادتي محاولا أن أسترخي وأنعم ببعض الهدوء، لكن عقلي لا يعرف سكونا. يفاجئني باستدعاء أحد المواقف التي جمعتني بالسيد "ثابت" وكنت وقتها متعجبا من طريقة تعامله مع من حوله. كنا في لقاء ضم أصدقاءه القدامى، وقد أخذ الحضور يتحدثون في انسيابية تامة وبلا هوادة حتى أوقفهم الدوغمائي بغتة حينما تعارض رأي أحدهم مع رأيه. لم يسمح للرجل بمواصلة حديثه، لم يمنحه الفرصة ليتابع كلماته، انهال عليه بكلمات هجومية تحمل وراءها قدرا كبيرا من التبجح. أحسسه بالضعف وجعل الشك يتسلل إلى كيانه، جعله يشعر وكأنه طفل صغير عليه أن يحترم من هو أكبر منه وعليه أن ينصت إليه دون نقاش أو جدال.

بالطبع كنت وقتها في بداية طريقي للتعرف على شخصية الرجل، لكن عصبيته التي أظهرها بوضوح أشعرتني بضرورة أن أحذر منه وأن أفعل ما يجب على فعله، لعلني لا أتعرض إلى ما يتعرض إليه الآخرون حينما يعارضونه أو يتوانون في القيام بالمهام التي يوكلها إليهم. وقد كانت الحمية التي تبعث في نفوس الفرسان فتكللهم بالظفر والانتصار، ترافقني وتشعلني حينما يصفق لي ويخبرني بأنني قد نجحت في تأدية مهمتي علي أكمل وجه.

لقد علمني الكثير من الأمور ومنحني بعضا من فلسفته الخاصة، تلك الفلسفة التي ضمت قدرا كبيرا من حكمة عجز عن تحويلها إلى واقع ملموس في حياته. فقد كان أهوجا خارج إطار العمل، تسلل العبث إلى علاقاته العاطفية، ملأت النزوات حياته فأرهقته، أحرج الكثيرين في أكثر من موقف دون أن يعبأ بحالتهم النفسية أو حجم الضرر الذي سببه لهم. كان عربيدا يتخفى وراء قناع الملاك، فأصابته بين الحين والآخر حالات اضطراب واضحة نجمت عن ازدواجيته الغريبة.

كان يتحدث باستمرار عن أهمية الأسرة وضرورة أن يكون للإنسان نسل يفتخر به أمام الناس وأن يتمتع المرء بأجواء العائلة الطيبة، ورغم ذلك لم يسع نحو تحقيق ما كان يحث عليه الآخرين قط. أخبرني في إحدى المرات أن الإنسان قد نسي الهدف الرئيسي من الوجود، ذلك الهدف المتمثل في البحث عن السعادة، وتابع كلماته مخبرا إياي بأنه من الواجب علينا أن نصفق لمن ينجح في الوصول إليها والتمتع بثمارها. وعندما سألته وقتها عن حجم السعادة التي بلغها في حياته، أخبرني بأنه لم يصل إلى شيء منها، وأكد لي على أنه حال البشر أجمعين. أدركت حينها أن الرجل كان من النوع الذي يحسن التحدث عن الجانبين دون الوصول إلى نقطة مستقرة واضحة، ذلك النوع الذي قد تضره فلسفاته المتشعبة على المدي البعيد.

كان اهتمامه بالقراءة بمثابة المصدر المباشر لفلسفته التي شكلها عقله بتلقائية اقترنت بالتنوع الثقافي الذي تعرض إليه اعتمادا على السينما والروايات والفنون المختلفة. لكن التعرض إلى كل شيء لا يعني بالضرورة الوصول إلى السعادة وراحة البال، فالتعرف على كل شيء قد يحول حياة الإنسان إلى جحيم

محقق، حيث أنه من المعروف أن الإنسان كلما زادت درجة تعقيده، قلت سعادته بصورة مباشرة. ورغم ذلك قد تمثل المعرفة المختلطة بالحكمة والتروي مصدرا مباشرا للراحة والاستقرار ضمن إطار مختلف.

-4-

لم يكن السيد "ثابت" محبا للثرثرة، كانت تزعجه وتصيبه بالحنق والضيق، خاصة تلك الثرثرة التي تنجم عن المحبين للتحدث عن أنفسهم والمبالغة في قصص وهمية من صنع خيالاتهم. لقد قابلنا الكثيرين ممن كانوا يتحدثون بلا هوادة عن قصص لم تحدث قط، ورغم وضوح زيفها، إلا إنهم كانوا يقصونها ويطلبون منا في الوقت عينه أن نتفاعل معها، وكأننا ساذجون لا نعرف الفرق بين المنطق والهرطقة. لكن السيد "ثابت" كان معروفا بغياب الخجل عنه، ولهذا لم يكن يسمح لأحد بأن يقص عليه أكاذيبا أو قصصا من الخيال بهدف إرضاء دواخل لا تعرف الإرضاء، فكان يواجه الكاذب بكذبه والمنافق بنفاقه، فعرف عنه شدته رغم طيشه الذي كان يخفيه وراء قناع ماكر عجز الكثيرون عن إزالته والتعرف على ما يقبع خلفه.

في إحدى المرات، كنا نشارك رجلا معروفا بين الأعيان لقاء عمل، وأخذ الرجل يتفاخر بممتلكاته التي تعب من أجلها وعمل كثيرا لينعم بها، وقد استمعنا له باهتمام كبير. ورغم ذلك لم يتوقف الرجل عن الاستمتاع بمتابعة نظراتنا التي اصطنعناها من أجل إظهار الاهتمام والاحترام، ولم يضع حدا لثرثرته التي بدأت في التحول إلى ضجيج وأذي. وعندما انتقل النقاش إلي موضوع يحتاج إلى إبداء الآراء وعبر الرجل عن رأيه الذي يعتز به كأي إنسان آخر، لعبت عينا الدوغمائي وتتطاير منهما الشرر، فعبر عن رأيه بصوت عال تبعه صمت تام.

أخبرني بعدها أن كل إنسان يعتز برأيه بشدة ويعتقد أنه حقيقة مهما حاول إقناعنا بغير ذلك. وضح لي أن المرء قد يحاول أن

يغير الحقائق من أجل ألا يؤذي نفسه، فإذا ارتكب شيئا مخالفا للطبيعة الأخلاقية أو الدينية، أسرع بمحاولة تغيير الحقيقة وأبدي رأيه في أمور مسلم بها، رغم علمه المسبق بأن أوهامه وأفكاره الزائفة ستضره على المدي البعيد.

إن ما أثار دهشتي حقا حيال ما قاله، تمثل في شعوري بأنه كان يتحدث عن نفسه وقتها. لكن دهشتي لم تلبث إلا وتلاشت، حيث أنه قد أخبرني بغتة بأنه لا يستثني نفسه مما قاله، وأن حاله مثل حال الجميع.

لم يقتلع الرجل من قلبه جذور العالم الخارجي، لم يتوقف عن جمع المال والتنقل بين النساء وإظهار مدي قوته وسيطرته، وقع في الإغراءات، الإغراء تلو الآخر. تلك الإغراءات التي يضعها الإله في طريقنا ليختبرنا، وإذا خضعنا لها تماما، نكون قد فشلنا وقتها في الاختبار. ورغم ذلك لا مناص من انتظار رحمته مهما صبغت محاولاتنا بصبغة الفشل.

إن فلسفته الزاهدة لم تترجم إلى واقع ملموس، فكثيرا ما تحدث عن الروحانية، عن الزهد، عن الرضا، ورغم ذلك كانت شروره تنافي أقواله وكانت أفعاله تتعارض مع نصائحه التي زود الكثيرين بها على مدار الأيام. إنني علي علم بأن حالة الانفصام هذه تخص الإنسان بوجه عام، تمت إلى الكثير من البشر، لكن حالته لم تكن في السياق المعتاد، لم تكن في المسار الصحي، فتعالت ووصلت إلى القمة محدثة بداخله خللا نال منه بين الحين والآخر.

ففي أكثر من مرة، وجدته يحدث نفسه بكلمات غريبة. كان يبكي، يناجي نفسه، يتأمل حال روحه، يظهر ضعفه في الخفاء حتى لا يشعر أحد بهشاشته الداخلية في العلن. فقد أخبرني في إحدى المرات أن الكثير من الأصدقاء قد يظهرون للمرء أنهم ينصتون إلى صراعاته ومشاكله، مخبرين إياه بأنهم قد يساعدونه في إيجاد الحلول اللازمة لها، لكنهم رغم ذلك يحلون عليه كنز لاء للتمتع بمشاهدة صراعه الذي لا حل له.

أخبرني بأن الإنسان كائن خبيث، يحمل بداخله شرورا عديدة وفي الوقت عينه مطالب بصدها جميعا، والواقع يخبرنا بأنه عاجز عن التخلص منها كلها، مما يؤدي إلى خروج الكثير منها إلى العلن. ومع تشعبها وانتشارها، تصطاد الكثيرين في شباكها وتضر العديدين منا. وقد أنهي كلماته وقتها بضحكة ماكرة اقترنت بكلمات ألصقها بعقلي حينما قال: فعليك بالحذر مني!

عدت إلى منزلي يومها محاطا بالخوف والقلق، أحسست بأن الرجل يخفي عني الكثير، شعرت بأنه لم يخبرني بكل شيء عنه. فكرت بعدها بتمعن وأخبرت نفسي بأن إنسان معقد كالسيد "ثابت" ليس بالساذج ليخبرني بكل تفاصيل حياته ويفصح لي عن كل أسراره.

-5-

لم أكن أعلم أن الإنسان قد يظهر عكس ما يقطن بداخله بهذه السهولة. لطالما أظهر الدوغمائي الرضا، كثيرا ما تحدث إلى الآخرين عن سعادته وإحساسه بأنه قد حقق كل ما كان يرغب فيه في صغره. لكن الحقيقة كانت كامنة بداخلة، كانت تؤرقه وتشعره بالعجز. كان يشعر بأنه قد قضي على منظومة الأخلاق التي رغب دائما في الحفاظ عليها، وكانت ازدواجيته تؤلمه وتبث السم في عصيره.

إن الازدواجية تتطور عند الإنسان بسهولة عندما يكون نهما، جشعا، طماعا، عندما يكون عقله مفعما بالكثير من الخيالات التي يرغب في تحويلها إلى واقع ملموس دون حواجز تعيق محاولاته أو تحد من وصوله إلى هدفه. ومع الازدواجية المتأصلة، يصاب الإنسان بالتدهور النفسي وتظلم روحه، فيصبح هائما، مهما كانت نفوذه حاضرة ومهما كانت قوته ظاهرة. فحينها تصبح القوة زائفة ويصبح الشغف غير مشروع، فتتحول الرغبات إلى خيانات وتصير الأحلام كوابيسا محققة مع الوقت.

الوقت الذي يلتهم كل شيء، فلا يمكث معنا سوي القليل، القليل من كل شيء، القليل من كل شغف. ومع تذكر الكثير الذي كان يحوطنا، تتسلل إلى نفوسنا مشاعر الحيرة والفقدان.

أعتقد أن الجوع قد نال مني، لكن مطبخي لا يحتوي على ما يكفيني، يبدو أنني في حاجة إلى شراء بعض الطعام.

تسلل إلى بطني الكثير من الطعام، لم أعد قادرا على المواصلة، أعتقد أنه من الأفضل أن أضع حدا لنهمي الذي لا يعرف حدودا. أتذكر أن السيد "ثابت" قد تحدث معي كثيرا عن فكرة النهم وعن حقيقة أن الإنسان لا يشبع، لا يعرف الرضا، وأنه غالبا ما يتظاهر بغير ذلك، يتظاهر بأنه راض عن كل تفاصيل حياته رغم كونها مشتتة ومفعمة بالاضطراب والصراع.

وقد أخبرته يومها بأنني قد قابلت في حياتي الكثيرين ممن كانوا سعداء بحيواتهم. كان الرضا بازغا في أعينهم، كان صدقهم يحدثني وأملهم ينعشني. لكن نظراته التي رمقني بها وقتها أشعرتني بأنه لم يقتنع بكلماتي وأنها لم تدخل عقله لتستقر بداخله.

في إحدى المرات، كنت جالسا معه في أحد النوادي، وقد اقترب مني وحدثني عن النساء. أخبرني بأن الرجل قد خلق وبداخله إحساس دائم بأن المرأة التي تعيش معه لا تكفيه، فمن الممكن أن يتزوج من إحدى ملكات الجمال، ورغم ذلك يشعر بأن هناك ما يفوته في هذه الحياة. وتابع كلماته ليحدثني بأن هذا الإحساس بمثابة الاختبار، فمن يتسلح بالرضا يهنأ ومن يتمرد يجد نفسه في أرض تيهاء لا مناص منها ولا إدراك لماهيتها.

إن السيد "ثابت" الذي لطالما تحدث عن الحكمة والصواب لم يترجم كلماته إلى واقع قط، لم تكن جديته ظاهرة إلا في مسيرته المهنية، لم يعهد حكمته سوي عمله الذي كان رفيق دربه، بينما كانت النساء نزيلات في منزله، يعرفهن ويحاورهن

ويقنع نفسه بقدرته على مبادلة الحب معهن، لكنه سرعان ما ينساهن بعدما يأخذ منهن مراده المعروف.

لقد دخلت شقته في إحدى ليالي الشتاء الباردة ووجدته يتغنى بأغاني الحب والغرام. وعندما حاولت التحدث إليه، ظهرت لي على الساحة إحدى رفيقاته الزائرات. والغريب في الأمر أنها لم تشعر بأي حرج بل تابعت ما كانت تفعل دون مبالاة. لكن الواقع الذي لم يعجبني في بادئة الأمر، تسلل إلي كياني مع الوقت، وصرت واحدا من محبي المجون اللعناء.

إن الرجل الذي لم يعرف طريقا إلى المجون قط، لم يعرف شيئا عن اضطراب الذات، ذلك الاضطراب الذي يأكل المرء ويلتهم ما تبقي منه بعد أن يخوض معركة دامية بين أحضان التبريرات والضلالات. وقد خضت هذه المعركة كما خاضها السيد "ثابت"، لكنه كان أكثر قوة وتحملا، على الصعيد الظاهري بطبيعة الحال.

إن الرجل الذي لا يسعد مع عدد محدود من النساء، لا يعرف الرضا في حياته بوجه عام. وكأن العقل لا يعهد سوي طريق واحد منبعه الرضا أو التمرد على الدوام. فيتحرك وفقا لنهج يتبعه المرء في حياته فيما يخص كل شأن ومجال. ومع الوقت يدرك كل إنسان أن الطمع لم يولد سوي التشتت والفقدان.

-7-

لم أنزل مع السيد "ثابت" إلى البلد عندما توفي كبير العائلة، لأنني كنت منشغلا بتأدية الواجبات والأشغال. وقد طلب مني ذو اللحية الحمراء أن أهتم بالأعمال حتى يعود إلى القاهرة بعد أن يخرج من أزمته التي لم تكن في الحسبان. فلم يعرف السيد "أبو حجر" المرض قبل رحيله، وقد زار الموت داره بغتة دون سابق إنذار. لكنها إرادة اللّه التي منحت كل إنسان وقتا معينا ورزقا محددا بطبيعة الحال.

لم تكن السيدة "زهرة" محبة للخروج إلا في المناسبات، كانت تسكن دارها سعيدة ومفعمة ببهجة المكان، دون رغبة في التفاعل مع الكثير من البشر إلا في بعض الأحيان. ورغم ذلك كانت كريمة ترحب بالزوار والأعيان، وكان وجهها يشع نورا ينم عن الطهارة والتقوى والسعي في طريق الإله.

لم تكن علاقتها مع السيد "أبو حجر" مستقرة كما ظن الكثيرون، ولم تعرف الراحة طريقا إليها قط، ورغم ذلك كان الحب موجودا بينهما، كما هو الحال بين كل الأحباب. ذلك الحب الممزوج بمرارة يتحملها الطرفان لتعبر السفينة إلى بر الأمان، بعد أن أصبحت مغادرتها أمرا بعيدا عن المنطق والواقع المرتبط بضرورة السريان.

لكن حكمة الأجداد تخبرنا بأن الإنسان عندما يرحل إلى العالم الآخر، ينهال البشر عليه بالتقريظ والتمجيد، مهما كانت أفعاله ومهما كانت تصرفاته وسلوكياته. ورغم ذلك لم يكن السيد

"أبو حجر" شيطانا بأي شكل من الأشكال، لكنه كان معروفا بألاعيبه التي لم تكن تخطر على بال، وكانت شدته الزائدة عن اللزوم معروفة في كل مكان. أما علاقاته النسائية، فلم تكن موضعا للحديث، وكانت جولاته محاطة بالضباب.

إن السيد "أبو حجر" المعروف بنجاحاته في سوق العقارات ومصانعه الكبيرة في القاهرة المكتظة، لم يكن ماكرا كما ظن الكثيرون، ولم يكن يكافح من أجل الوصول، لكن الأراضي التي تركها له أبوه بعد الرحيل كانت بمثابة الكنز المكنون. وبأفكار مثمرة زرعها البعض في عقله وعمليات بسيطة من البيع والشراء، وصل الرجل إلى مركزه المعروف. لكن التحدي كان كامنا في الحفاظ على الإرث المتروك والوضع المرموق، وهو ما عملت الأسرة بأكملها على إتمامه، خاصة السيد "ثابت" المشهور بسعيه الدؤوب وذكائه، رغم طيشه الخفي ولهوه المستتر.

يتحمل الإنسان الكثير من الأمور عندما يراوده إحساس الإنجاز، عندما يشعر بأن له واجهة عليه أن يصل إليها دون هروب أو استسلام. وهكذا كان الحال مع السيدة الكبيرة التي تعبت من أجل نسلها وعملت باستمرار على توفير احتياجاته التي لم تعرف سوي التكاثر والتزايد.

لطالما تسلل التوتر إلى حواراتها مع السيد "ثابت" وأبيه، وكثيرا ما تكلم الدوغمائي معها دون رغبة في العدول عن آرائه أو أفكاره. وفي كل مرة كانت تعبر عما يكمن بداخلها ثم تعود إلى صمتها المعهود. لقد تحملت الكثير على مدار

السنين، وكان الصبر رفيقها الأبدي، وفي النهاية لم تجد سوي التشتت والفراغ.

أما "سعد" و"حسناء"، فكان لكل منهما دربه الخاص، فقد انشغل الابن بمتطلبات زوجته "جميلة" العديدة وكانت "حسناء" تائهة على الدوام في دروب المراهقة المرهقة والمفعمة بالخيالات والمتاهات.

لقد زرت العائلة في الكثير من الأوقات، وكنت حاضرا في العديد من المناسبات. كانت بيننا لحظات دافئة لا يمكنها أن تفارق ذهني ولا أرغب في أن تفارقه، وكان الضحك يحوطنا ويحرك ملامح وجوهنا، فيأخذنا إلى عالم التفاؤل والنسيان.

أتذكر في إحدى المرات أن أصوات البلابل كانت تحوطنا في انسيابية وتناغم تام، وكان الجميع يتسامرون بحيوية وأريحية واضحة، بينما كان القمر قريبا منا ومبتسما لنا. لكن ما قطع السيمفونية الرائعة تمثل في النهوض المفاجئ للسيد "ثابت" والذي اقترن بهاتف طارئ يخبره بضرورة العودة إلى القاهرة.

كان اتصالا حارا من إحدى فتياته الطائشات، لكن أمرها لم يكن عاديا بالنسبة إليه، فقد كانت فتاته المفضلة، فتاته التي كادت أن تقنعه بالزواج منها في أكثر من مرة، لولا دوغمائيته المعهودة، والتي حالت بين أحلامها وتحويلها إلى واقع.

لقد كانت سكرتيرته الجذابة "جيداء" السبب المباشر وراء إنزال الستائر وتوديع القمر لنا وإعلان النهاية لجلستنا الفاتنة،

وقد عدت معه يومها مفعما بأحاسيس التشتت والحيرة بعد أن شعرت بحجم الود الذي ترعرع بيني وبين عائلته المبجلة.

الجزيرة المرجانية "بكيني"، تلك الجزيرة التي أجرت عليها الولايات المتحدة العديد من تجاربها النووية في يوليو 1946، ومنها اُستمدت كلمة "بكيني"، لتصبح الاسم المعروف للقطعتين اللتين تغطي بهما النساء بعضا من أجسادهن حينما يرغبن في السباحة أو الجري على الشاطئ.

لقد مررت هذه المعلومة البسيطة إلي السيد "ثابت" في إحدى جلساتنا التي عقدناها بعد ليلة ماجنة انتهت بأحاديث عشوائية عديدة. أخبرته بأن المصممين قد شبهوا تأثيره بتأثير القنبلة النووية حينما تلقي محدثة ضجة قادرة على الإطاحة بكل شيء، وأخذت أتحدث عن فكرة التسمية معتمدا على الكثير من الحجج والبراهين. ورغم ذلك، لم يعبأ بما قلت وحاول إقناعي بسبب غير منطقي للتسمية، مصمما على فكرته ومعبرا عن دحضه التام لفكرتي.

شعرت وقتها بأنني لا أمتلك القدرة الكافية لإقناعه بفكرتي، رغم منطقية كلماتي وكثرة أدلتي. أخبرته بأنني قد اقتنعت بكلماته مجبرا، وتنازلت عن كلماتي رغم المنطقية القابعة خلفها، لأن الموضوع كان تافها والجهد المبذول كان باطلا.

عدت يومها إلى منزلي محاولا أن أقفز إلي بحر النوم بسهولة، لكن النوم لم يزرني وقتها، وتسلل الأرق إلي كياني. وقد خرجت إلى الشرفة محاولا أن أنعم ببعض الهواء النقي وتأملت القمر بجماله وبهائه فأخذني إلى عالم الخيال والأوهام، لكن اللحظة لم تكتمل ورن جرس الهاتف ليعكر صفوها.

كان السيد "ثابت" يتحدث بصوت بطيء ومهموم، كانت تتخلل صوته تنهدات ودمعات كشفت عن حزن عميق واضطراب غريب. نزلت إلى الشارع مسرعا وركبت سيارتي واجفا، وكنت بداخل منزله في لمح البصر.

اقترب مني وجاشت عينه حزنا، أخبرني بأنه يعاني من فقدان المعني وأنه لم يعد سوي رجل مشتت ضاعت منه خارطة الطريق التي لطالما سار في دربه مهتديا بها.

أخبرته يومها بأنه قد أصبح في حاجة إلى الزواج، ووضحت له أنه يحتاج إلى إرضاء عاطفي يليق به، إرضاء عاطفي لا يحمل الزيف الذي تقدمه له علاقاته مع العاهرات أو الرفيقات الوهميات. تابعت كلماتي موضحا له بأن نصيحتي موجهة لكل منا، وأنها قد تمثل حلا جيدا بالنسبة إلى التائهين أجمعين. ورغم ذلك كانت نفسي تحدثني بأن كلماتي يتخفى وراءها وحش جاسر، وحش يظهر إلى العلن بمجرد مرور البدايات، لأن العواطف متقلبة والقلوب متغيرة بطبيعة الحال.

تبدل وجهه وبدت مشاعر الدهشة عليه كضال يحتاج إلى الهداية، وأخبرني بأن غايات النفس عديدة، والزواج واحدة منها، لكنها رغم ذلك لا تناسبه ولا تعد من أولوياته، لأنه يعشق التنقل، رغم احترامه الشديد لفكرة العائلة.

نظرت إليه نظرة تحمل قدرا كبيرا من التعجب والفضول، أخبرته بأن اضطراب عواطفه ينم عن غياب قدرته على توظيفها

في المكان الصحيح، وأن الزمان يجري كخيل لا يعرف الوقوف في منتصف الطريق ليستريح، وأنه يمر مرورا سريعا وغريبا.

أخبرني بأن الأمور لا تسير كما نتخيل والأفكار لا تترجم إلى واقع كما نأمل، فالعالم لا يعرف التنفيذ وفقا للمقاييس التي نضعها بأنفسنا، لكنه يتحرك وفقا لخريطة نعجز عن فهمها أو الإلمام بمفرداتها.

وقد انتهي الأمر بدعابات تبادلناها وأفكار تشاركناها، ومنحني كتابا يتحدث عن رسام إيطالي يدعي كارافاجيو، وأخذ يحدثني عن إعجابه الشديد بأعماله، خاصة "ميدوسا". في الحقيقة، كانت اللوحات الفنية بمثابة الملتجأ بالنسبة إليه وكان الفن بمثابة الملاذ القادر على ضخ الطمأنينة والسلام في عروقه.

عندما ينبلج الصبح تنشرح الصدور، وحينما يحل الليل يشعر الإنسان بالخمول، لكن الانشغال بأعمال النهار لا يسمح للخلجات بالاسترسال، أما السكون المصاحب لليل ينشط الدواخل ويلاعب العقول.

في إحدى الليالي المثيرة للشجون والمفعمة بالخيالات، راودتني العديد من الذكريات التي جمعتني بالسيد "ثابت"، وكان من بينها موقف اقترن بلهجة جدية حدثني بها ذو اللحية الحمراء.

كانت لحيته مقصوصة الأطراف وكان من الواضح اهتمامه بها وتهذيبه لها. وقد جلسنا قرب المدفأة بينما كانت الأمطار تهطل في الخارج دون أن تعرف سكونا. لكن الشتاء ببرودته لم يحد من حواراتنا ولم يمنعني من قضاء بعض الليالي في منزله كما اعتدت دائما، حيث كنا نتحدث عن العمل أو نتكلم لنزهق روح الملل.

كانت إلى جانبه رواية لأمبرتو إيكو يعلوها كتاب لفيلسوف يدعي سينيكا، وكانت لوحة "إصرار الذاكرة" لسلفادور دالي بساعاتها الذائبة تزين الجدار الأحمر المميز للغرفة الواسعة. وكنت منسجما مع بيئة الهدوء والاسترخاء الناجمة عن الأضواء الحمراء المنبثقة من المصابيح المعلقة، لدرجة أنني قد أحسست كما لو كنت في حلم مدهش وعجيب.

ليلتها، قرأت في عينيه اهتماما بموضوع يرغب في أن يترجمه إلى كلام مسموع ومشاعر محسوسة. وقد اقترب مني وأخذ يحدثني

عن إحساسه باغتراب الذات وشعوره بأنه منفصل عن عائلته واحتياجه لعاطفة أمه الجياشة التي لطالما حوطته في صغره وشملته بالدفء والطمأنينة.

تحدث عن الحقيقة القاسية التي نعيشها والتي تتلخص في ضرورة الانفصال والابتعاد، فالعائلات مفككة والأبناء منعزلون والحياة الجديدة تقتضي أن يبحث الإنسان عن المال دون أن يدرك حقيقة المسار الذي يسلكه ودون أن يهتم بالأمور التي تحمل قيمة حقيقية في حياته.

أخبرني بأن الإنسان يدرك السعر لكنه لا يدرك القيمة، يعرف الهدف لكنه لا يعرف جودة الثمار الناجمة عنه، يسير وحيدا رغم وجود الكثير من الأفراد حوله.

لكن الغريب في الأمر هو أن السيد "ثابت" الذي لطالما أخفي عن الجميع عواطفه الجياشة ومشاعره المضطربة، لم يكن يشعر بالخجل حينما كان يجالسني، وكان يكشف لي عن الكثير من أموره دون حدود. لكن الليلة التي جمعتنا تحت لوحة دالي المميزة لم تكن كأي ليلة سابقة، فقد كانت المشاعر الجياشة تحوطها وكانت الكلمات المعبرة تشعلها.

-10-

في إحدى الجلسات المحتدمة، كان الحضور يتحدثون بلا توقف عن الفرق بين الرأسمالية والشيوعية، ورغم كون الحديث قديما وبعيدا عن العصر الذي نعيشه، إلا أن الجدال قد تسلل إليه بسهولة وتلقائية غريبة.

لقد سمعنا عن مثل هذه الحوارات في روايات دوستويفسكي، وكانت شائعة عند الأجيال القديمة، لكنها لم تعد ذات أهمية بالنسبة لحواراتنا الحديثة، خاصة بعد تأصل الرأسمالية وتشعبها. ورغم ذلك، كان الموضوع محل النقاش واهتم الجميع بتفاصيله وأبعاده لدرجة أن الحديث، يومها، قد استمر لما يزيد عن ساعتين.

تسللت الغرابة إلى الحديث الدائر بين الأعيان، كنتيجة لتفوه السيد "ثابت" بالعديد من الكلمات البذيئة الناجمة عن مخالفة رأي أحدهم لرأيه، وقد بادله الرجل السب بالمثل. لكن الدوغمائي المعروف بسلطاته المتعددة لم يسمح للحوار بأن ينتهي بسهولة وصمم على أن يعتذر الرجل إليه. وقد خضع الضعيف لذي اللحية الحمراء بعد إدراكه لعدم قدرته على الوقوف أمامه أو مناطحته.

كان نصرا جليا للسيد "ثابت"، ثم تلاه صمت تام، صمت ارتبط بغياب المنطق عن الحديث وبحقيقة أن الأمر لم يكن في حاجة إلى كل هذا الضجيج. وكأن الإنسان يحمل بداخله طاقة سلبية غريبة، تظهر انعكاساتها في الكثير من الأوقات، لتأخذ من الأشخاص أنفسهم موضعا للصراع والنزاع.

في أحد الأيام المقترنة بانعقاد السحاب وتساقط الرذاذ وانهمار المطر، نزلت إلى الشارع مجبرا بعد مكالمة هاتفية من السيد "ثابت" الذي صمم وقتها على نزولي دون إخباري بسبب احتياجه لقدومي. وقد ركبت سيارتي وأسرعت إليه كعادتي مكبلا بقيود الطاعة والولاء.

دخلت إلى منزله والتخيلات تملأ عقلي المنهك، وإذ بشيء طارئ يجذب النظر، فتاتان تظهران لي بملابس خليعة وتضحكان بلا توقف محاولتين تجريدي من ملابسي الثقيلة. وقد قاومتهما في البداية وانصعت إلى أوامرهما في النهاية، وكان السيد "ثابت" معنا يشعل الفتيل ويؤجج النيران.

لم أكن أعرف أن الجدية التي تظهرها الشوارب وتعبر عنها اللحى قد تتلاشى في لمح البصر. وقد تأكدت من هذه الحقيقة وأدركتها بشكل تام بعد أن شاهدت ما صدر عن السيد "ثابت" ليلتها.

كنا نمارس الحب عرايا وكانت النشوة قادرة على اصطحابنا إلى السماء بسهولة. وكنا نتضاجع بشراسة بين المصابيح المشعة الغريبة، والتي كانت تراقبنا في صمت عجيب وتحوط عربدتنا بضوء أبيض مضيء. ورغم ذلك كان الضوء زائفا وكانت المتعة بلا معنى.

كان ذو اللحية الحمراء في حالة واضحة من حالات السكر والعربدة، وأخذ يتمايل دون أن يعرف اتزانا أو استقرارا، وقد

صدرت عنه الكثير من الألفاظ الغريبة والتي تبادلها مع الفتاتين في انسيابية تامة.

ورغم انضمامي للفرقة ولهوي معها، إلا إنني قد شعرت في منتصف الحفلة بشعور غريب، شعور أحدث اختلالا كبيرا في كياني، ويبدو أنه نجم عن إحساسي بأنني قد قللت من شأني وألحقت بنفسي شرا كان من الأفضل ألا أقترب منه أو أجاريه.

وقد تذكرت وقتها قصة قديمة كانت تتحدث عن أم دعت لابنها بألا يري وجوه العاهرات أو يتعامل معهن أو يخضع لفسوقهن، لأنها كانت تري بأن وجه العاهرة يؤذي القلوب وأن الدرب المؤدي إليها يهلك الأرواح ويظلم النفوس.

بعد النشوة العابثة، عدنا إلى الواقع بمجرياته المتعددة. وبعد مغادرة الفتاتين، أخذنا نتحدث ونتنقل بين الموضوعات كطائرين لا يعرفان سكونا.

تحدثنا عن العمل، عن الحياة، عن الأمل، وانتهي حديثنا بالتحدث عن الفن، ذلك الموضوع الذي لطالما تسلل إلى أحاديثنا العديدة والدافئة. تحدثنا عن مارك شاجال ولوسيان فرويد وفان جوخ، وانتقلنا بعد ذلك إلى عالم السينما لنتحدث عن تيم برتون ومارتن سكورسيزي وديفيد فينشر.

كان يتحدث باستمرار عن الفن الأجنبي، وكأنه لا يرغب في التطرق إلى الفن المصري أو العربي بوجه عام. وقد سألته في إحدى المرات عن سر تطرقه الدائم إلى كل ما هو غريب عنا، فأجابني بحبه الشديد لكل ما هو جديد وشغفه العميق تجاه

كل ما يخالف المعتاد ويبتعد عن المعروف. وقد أدي ذلك إلى اهتمامي بما كان يهتم به وحرصي على متابعة ما كان يتابع، لعلني أصبح قادرا على التحدث إليه والتجاوب مع أفكاره المتشعبة.

-12-

لطالما جسدت السينما فكرة السكرتيرة التي تغوي مديرها، ودائما ما كان الإغواء أمرا يسهل تجسيده والتعبير عن ملامحه. لكن علاقة "جيداء" بالسيد "ثابت" كانت بعيدة عن الفكرة النمطية. كانت غريبة، معقدة، تحمل قدرا من السذاجة والطيش، وفي نفس الوقت كان الصراع يبث فيها بين الحين والآخر، ذلك الصراع المنطقي الذي ينجم عن إحساس الشريك الأنثوي بالإهانة والضعف وتدنيس الجسد.

لطالما كان تدنيس الجسد أمرا مكروها، ودائما ما اقترن بالشيطنة والقبح وتدهور الأخلاق، لكن المجتمعات والثقافات اعتادت أن توجه التهم إلى المرأة وحدها، رغم أن الجرم يخص الجانبين والدنس يشمل الطرفين.

هكذا كان الحال مع "جيداء"، فلم تنجح في إقناعه بالزواج منها ولم تكن قادرة على التخلص من العار الذي جلبته إلى نفسها والدنس الذي لطخت جسدها به.

كان مصمما على رأيه رغم حبه لها، كان يري أنه من الأفضل لعلاقتهما أن تبقي كما هي دون أي تطورات تذكر، وأن تظل في مرحلة الحب الأهوج الممزوج بالجنس الأحمق.

كان ذو اللحية الحمراء أشبه بالذئب، وقد أدركت حقيقته الخفية عبر التعرض إلى الكثير من المواقف التي أكدت الفكرة التي أخذتها عنه.

ففي إحدى الليالي الماجنة، تشعشع الضوء في الأفق، ارتفعت أصوات الموسيقي وأخذت تتصاعد بلا توقف، دب الحماس في الكازينو وأخذت الفتيات يرقصن كالمجنونات. اندمج الذكور مع تموجات أجساد الإناث وشرعت الرغبة في الاشتعال، فاندمجت الإناث معهم وتحول المشهد إلى عربدة جماعية لم يشهد لها المكان مثيلا من قبل. وقد وجدته يمر بين أجساد الفتيات المفعمة بالحيوية مرور الذئب قرب فرائسه، ولاحظت أنه اصطاد واحدة منهن كما يصطاد القناص المخضرم الغزلان. وأخذ يشاركها الرقصات والملامسات وشرع في تبادل القبلات، لكنها سرعان ما أوقفته وتراجعت إلى الوراء معبرة عن امتعاضها التام. وضحت له بأنها لا تعرفه بما يكفي كي تشاركه مثل هذه اللحظات ثم ضحكت بقهقهة شيطانية وأخبرته بأنهما لا يعيشان في عالم الحيوان.

بادلها الضحكات وصمم على اصطحابها إلى منزله مستخدما الكثير من الكلمات ذات النمط المعتاد. وعندما صدته، شعر بضيق شديد وحملها بذراعيه كما يحمل الوحش ضحيته التائهة. وقد سيطر عليها بذكائه المعهود وأخذها إلى منزله بمكره المشهود، بعد أن ودعني تاركا إياي في حالة من الذهول والتعجب من تصميمه العجيب على متابعة كل ما لا يفيد.

فإن كانت الفائدة منعشة للجسد، فإنها رغم ذلك مهلكة للروح والنفس. وإن كانت الرغبة مشتعلة في اللحظة، فإنها تفني بعد اللمسة. ورغم ذلك، لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن سيطرته على عقلي، خلقت مني إنسانا مزدوجا مثله، فأصبحت أتحدث معتمدا على الحكمة وأتصرف معتمدا على الطيش والنزوة. لكن

الفصل بين اللهو والجد منحنا القدرة على الاهتمام بالعمل وساعدنا على تطويره والتطرق إلى حذافيره.

يدور العقل ليقف عند نقطة يصنع منها عقدة. في إحدى الليالي الساعية نحو الترفيه وبعد شقاء يوم تعيس، جلست مع السيد "ثابت" لنشاهد فيلما يدعي "القيامة الآن". وقد اندمجنا مع الفيلم بوضوح وأخذنا نتنقل بين مشاهده في سعادة تامة. وقد انقطعت وتيرة المتعة التي شملتنا وقفزنا إلى أعماقها، بمجرد أن رن جرس الباب الذي فتحناه لنرحب بأصدقاء السيد "ثابت".

كانوا خمسة رجال، وقد ظهرت عليهم ملامح القوة والصحة، وأخذوا يتحدثون بلا توقف حتى الفجر الذي حل علينا في لمح البصر، بعد أن تسللت الكلمات المتسارعة إلى الأجواء، فمررت الوقت دون عناء.

وقد وقفت العقول عند نقطة سياسية عظيمة، وصنعت منها عقدة شديدة العمق في الأغوار، وخرجت المعارضة لتشعل النيران، وخرج الدوغمائي بقوته المعهودة فارضا رأيه على الحضور وممسكا زمام الأمور، كي لا يسمح لأحد بالتحدث، بعد أن صدرت عنه كلماته وخرجت منه أقواله.

إن طريقته التي عمد إليها باستمرار، ليفرض رأيه على الجميع، كانت مبنية على العنف والشدة بوضوح. كانت شبيهة بتعامل الأب العنيف مع الأبناء الصغار، والجد الممتعض مع الأحفاد الطائشين. لكن هيبته المستمدة من لحيته ونفوذه كانت الداعم الرئيسي لحضوره والمسبب الأول لإنصات الجميع إلى كلماته وأقواله بوجه عام.

-14-

الكثير من الأشياء البيضاء، كلها دُنست، تبرزت عليها الشياطين، انبثقت منها رائحة العفن وتسللت إلى جنباتها أطياف الخبث والدناءة. أسير في طريق لا أفهمه، أبحث عن المعني ولا أجده، كياني مفعم بالتوتر والإرهاق، ضربات تنهال على كما تنهال النيران على الجنود في المعركة، لكنني لست بجندي، لست برجل يرغب في الصراع، لا أرغب سوي في بعض الطمأنينة والأمان.

يصبح الصراع بين الخير والشر متأصلا حينما ننتقل إلى الجانب الآخر ونصبح من سكانه. فعندما ينتقل الإنسان إلى الجانب الأسود المفعم بالشرور، تراوده الكثير من الأحاسيس المضطربة والمقترنة برغبته العارمة في العودة إلى بر الأمان.

فالخير مصدر رئيسي لاستجلاب أحوال الطمأنينة والأمان، ومع الشر تضطرب النفس وتتسلل إليها الكثير من الهواجس والشكوك بشأن أفعالها المقيتة وسلوكياتها الكريهة.

لقد قمنا بالكثير من المخالفات في بعض الأوقات، تسلل الطمع إلى أعمالنا فجعلنا نعمد إلى الغش والخداع والتلاعب بجودة المنتجات، ورغم ذلك لم ينجح أحد في كشف ألاعيبنا ولم يصل إنسان إلى أسرارنا.

إن مخالفاتنا الأخلاقية لم تشمل النزوات وغيرها من القاذورات فحسب لكنها امتدت لتشمل العمل، وتسللت بين ثناياه فصبغته بصبغة الانحطاط مع الوقت. لكن المبيعات كانت مرتفعة

والأرباح كانت طائلة، فاختلط الأمر علينا واهتممنا بالنتيجة دون الاهتمام بماهية الوصول إليها.

يعتقد الإنسان أنه سيتخلص من القيود بمجرد تجاوز الحدود، لكنه واهم بكل تأكيد، لأن حرصه الدائم علي حسن السمعة سيكبله وحنينه الجياش تجاه طبيعته المفتقدة سيلاعبه باستمرار حتى يرهقه في نهاية المطاف.

لقد شعرت دائما أنني أحيا في عالم سوداوي مفعم بالشرور والخبث والدناءة، أحسست أننا أشبه بقرود الغابة التي تتصارع في همجية وبربرية من السهل إدراكها ورصد ملامحها.

لطالما فكرت في حقيقة إذا كنا نختلف عنها، وكثيرا ما تأملت كياناتنا المعقدة بمسارحنا ومبانينا ومستشفياتنا وصراعاتنا ومحاولاتنا تحقيق ذواتنا. وتمعنت مرارا وتكرارا في تلاشي كل هذا مع الوقت وسيطرة الفناء على مفردات حيواتنا مع مرور الزمان.

تعجبت من حالنا وحاولت أن أجد فارقا واضحا بيننا وبين تلك القرود التي تتصارع بعشوائية تشبه عشوائيتنا التي نحاول دائما أن نغلفها بمصطلحات الحضارة والرقي والتقدم. وقد توصلت إلى حقيقة أن حضارتنا زائفة كل الزيف وعاجزة عن الاستمرار، وتأكدت من أن تدني الأخلاق واقع لا مفر منه وادعاء المعرفة كارثة لن تفارقنا، ورغم ذلك دائما ما نتحرك معبرين عن نباهتنا ومعرفتنا اللامعة ومحاولين خلق المزيد من المجتمعات المبهمة والحضارات المزيفة.

إن التقي الذي دفنته بداخلي يرغب في الخروج إلى العلن، يشعرني بأن هناك ما ينقصني، يؤجج عاطفتي ويشعل صراعات ضميري، فقد خلق شيطاني كتابا مقدسا يخص كياني وسرت على نهجه متبعا أهوائي، وقد اكتشفت في النهاية أن سيطرته علي ألحقت الضرر بي وأفقدتني روحانية كانت الطريق الأمثل لاستجلاب أحوال استقراري وطمأنينتي.

لطالما منعني ولائي تجاه السيد "ثابت" من عدم الإنصات إليه. وقد كان عقله المدبر وفكره المسيطر لدرجة أنني قد شعرت بعدم أهميتي وغياب الإحساس بوجودي في الكثير من الأوقات.

كان ماكرا وبارعا في السيطرة على العقول وكان عقله يتفوق على عقلي ويتلاعب به بسهولة، ورغم ذلك كثيرا ما تساءلت عن حقيقة قدراته ومهاراته، لأنني كنت علي علم بأن المعرفة تقترن بالفضيلة والخير وأن الجهل يقترن بالرزيلة والشر. وقد كانت معرفته توظف في سياق الشر في الكثير من الأحيان مما دفعني إلى التساؤل باستمرار عن حقيقة معرفته وكونها زائفة أم صادقة.

-15-

على مدي البصر تضئ الشمس لنا الآفاق، وعند إمعان النظر نجد الخضرة في كل مكان، ورغم ذلك نحب، نحن البشر، أن ننشر الفسق والفساد في الأرجاء، لكننا نعلم أن الإله إذا أراد للشر أن ينقطع لانقطع في الحال، لكنها إرادته التي تضعنا في اختبار معقد لا ندركه ولا نعرف أبعاده، لأن عقولنا لا توفر لنا إمكانية التعرف على مفرداته أو التأمل في أركانه بشكل تام.

الإنسان ليس بملاك، وفي الوقت عينه ليس بشيطان، إنه راقد في المنتصف، متذبذب بين الخير والشر، مضطرب يحاول أن يهدأ فلا يجد ما يساعده على بلوغ مبتغاه، ومع الوقت يدرك أن الروحانية هي طريق النجاة وأن المادية مهلكة وفانية وقادرة على إنهاك روحه وإفناء سكونه.

لقد دخلت في حوار شرس مع الدوغمائي في إحدى المرات، لأنني قد شعرت وقتها بالتباس الأحاسيس وتضارب الأفكار. فقد لاحظت تغيرات غريبة في شخصيته، كان أبرزها سعيه الدائم نحو تغيير الحقائق ومحاولته المطردة أن يتلاعب بها ويبدلها، رغم علمه بالحقيقة الجارحة والتي لا تعبأ بالآراء ولا تهتم سوي بالواقع.

فرغم كوننا في نفس الطريق، إلا إنني قد اهتممت دائما بالاعتراف بالحقيقة وسعيت باستمرار نحو إدراكها والتعرف عليها، لعلني أعود إليها حينما أفيق. وقد أخبرني يومها بكلمات غريبة تناقضت مع أقواله القديمة وعباراته العتيقة، وكأن

شخصيته قد تغيرت وأفكاره قد تبدلت ليريح نفسه ببعض المهدئات والمسكنات التي لا طائل منها على المدي البعيد.

اشتد الصراع واحتدم النقاش ووقفت ملوحا بيدي ومعبرا عن سخطي وغضبي. وكادت علاقتنا أن تنقطع لولا أن الهدوء قد تسلل إلي النقاش والمحبة قللت من وطأة الصراع، فعدنا إلى ما كنا عليه قبل النزاع وصرنا حبيبين من جديد، رغم عدم اقتناعه بكلماتي وعدم اهتمامه بعباراتي.

لقد قرأت في أحد الكتب أنه من الممكن لنا أن نتجاهل الصراعات الناجمة عن النقاشات، وأننا وقتها نتعامل مع بعضنا البعض بصورة مجردة لا تهتم بالماهية لكنها تسعي نحو إدراك التجاهل والتغافل. وحينها تكون الكلمات عبثا بلا قيمة وتكون العبارات بلا تأثير يذكر أو أثر يرصد.

ورغم ذلك لا يمكنني أن أنكر الحقيقة الواضحة والتي تقتضي أن نعترف بأن التجاهل يقترن بقتل العاطفة، وفي الوقت عينه تتطلب أن نتعامل مع الواقع الذي يؤكد على كون الحياة تجربة عاطفية وحسية من الطراز الأول.

-16-

في لوحة "الأيل المجروح" لفريدا كاهلو، تجسد الفنانة نفسها على هيئة حيوان برأس إنسان لتعبر عن معانتها وصراعها معتمدة على الجروح الناجمة عن السهوم العديدة. لم تكن المعاناة جسدية فحسب لكنها كانت عاطفية ونفسية في الوقت نفسه، لترصد التدهور العاطفي الذي شمل علاقتها مع زوجها ريفيرا.

لقد وصف لي السيد "ثابت" هذه اللوحة في أكثر من مرة معبرا عن إعجابه الشديد بها، وهوسه الكبير بالرمزية والسريالية القابعتين بين حوافها، وكنت في كل مرة أجلس في صمت تام وأستمع إلى التخيلات والتأملات بإمعان، لكن الصراع المجسد كان جذابا والخيال الواسع كان مؤثرا لدرجة أن اللوحة قد رسخت في ذهني وأصبحت جزءا متأصلا في عقلي.

كان يخبرني باستمرار أن الفن ينقي الروح من غبار الحياة اليومية، واكتشفت بعد ذلك أن العبارة كانت على لسان بابلو بيكاسو، ذلك الفنان المعروف والمحبوب. لكن الغريب في الأمر هو أن الفن لم ينق عقله من جموده الفكري ولم يخلصه من عدم قدرته على إنكار الذات. فقد أثبتت الكثير من المواقف تقديسه لذاته وتعظيمه لها لدرجة أنه كان يعامل أي رأي يخالف رأيه أو فعل يعاند فعله بمثابة التعدي عليها والتقليل من شأنها.

-17-

في إحدى المرات، اصطحبني السيد "ثابت" في جولة جميلة عبر أرجاء المدينة. وأخذنا نتحرك بلا توقف بين جنباتها حتى أرهقنا طريقنا الذي لم يعرف نهاية.

لقد كانت جولة مميزة سيطرت عليها نغمة الفلسفة التي أطلقها الرجل، منتعشا بلذة التنقل بين عباراتها الرنانة العائدة لرجال قدامي عاشوا في العصور الغابرة وماتوا دون ترجمتها إلى واقع ملموس أو شيء محسوس، خاصة فيما يتعلق بأمور الفضيلة والأخلاق.

وقد عدنا بعدها إلى منزله، وجلسنا نتحدث عن العديد من الأمور دون الوصول إلى حلول أو الوقوف عند نقطة ذات شأن معلوم. لكن اشتعال الحديث نجم عن التطرق إلى موضوع غريب كان يخص الوجود.

قد ينظر إلى من يتحدث عن الأمور الوجودية أو سبب الوجود على أنه إنسان لا يشعر بأحوال البشر ويعيش في عالمه الخاص المفعم بالأموال والراحة والجمال. وقد يعامله الكثيرون على أنه شخص سعيد فرغ من أمور الدنيا وجمع ما يكفي من كنوزها، فصار لا يعبأ بالسعي وملأت الأفكار الفلسفية عقله فأصبح لا يهتم بصراعات لقمة العيش. لكن الواقع يخبرنا بأن الأمور لا تسير على هذا النهج على الدوام وأن الكثير من حالات الاستثناء قد تنبثق من بين أحضان الحياة لتتلف حب التعميم الذي يشمل البشر أجمعين.

لا شك في حقيقة أن السيد "ثابت" كان معروفا بغناه الفاحش، ولا مناص من الاعتراف بقدرته على فعل كل ما يريد وكل ما يندرج تحت بندي اللهو والترفيه. لكن الرجل كان محبا للعمل بشدة، وكان يسعى باستمرار نحو تحقيق المزيد من النجاحات والأرباح، وكانت فلسفاته تجلب اللذة إلى كيانه، لكنها لم تكن نتاجا لفراغه أو عدم إحساسه بمن حوله بل كان قادرا على التفاعل مع الواقع والانخراط في صراعاته والتفلسف حول الحراك في نفس الوقت.

يومها، تناولنا كوبين من الشاي بنكهة القرنفل، وكان البخور يحوطنا برائحته الجامعة بين العود والمسك والعنبر، وأخذنا نتحدث عن أمور غريبة تخص المثقفين ممن يجلسون على مقاهي وسط البلد ليتفلسفوا حول الوجودية والسريالية والرمزية والتكعيبية. لكن أكثرهم كانوا من الشباب التائهين الساعيين نحو توظيف فراغهم في شيء لا يعرفونه، لتزداد حيرتهم وتتأجج عواطفهم.

أما السيد "ثابت"، فقد كانت فلسفاته جزءا من سعادته وطمأنينته، وكان يتنقل بين موضوعات عديدة لا يربطها أمر واضح ولا يجمعها شيء مشترك.

أخبرني وقتها بأنه كان محبا لفيلسوف يدعي سارتر، وأخذ يحدثني عن كتبه العديدة ذات الأسماء الغريبة، فحدثني عن الغثيان، والوجود والعدم، والوجودية مذهب إنساني، وغيرها من الكتب العجيبة التي لا يصل المرء معها إلى نتيجة واضحة.

لكنه قد أماط اللثام عن حقيقة الوجوديين لاحقا، عندما أخبرني بحقيقة أن فلاسفة الماضي لا يمكنهم أن يسكنوا قلوب الحاضر، لأن العصر الذي نعيشه شديد السرعة والناس لا يمكنهم التجاوب مع ترهات عديدة في الوقت الذي يطالبهم فيه العالم بسرعة تأدية ما عليهم من واجبات ومسئوليات.

وقد أظهرت اتفاقي معه وعبرت عن إعجابي برأيه، فأحس بنفسه وارتفع بنغمته وأخذ يتعمق في المزيد من الأمور ذات التأثير غير المعلوم. وقد مرت الساعات في لمح البصر ووجدنا الأمطار تهطل في الخارج دون أن تعبأ بفلسفاتنا الوهمية التي مر عليها الزمن ودفنت تحت التراب، وكلما جددت، فشلنا في إيجاد حلول لها أو الوصول معها إلى نتيجة مؤكدة.

إن أسئلة البشر مكررة بلا تجديد، والغموض الذي يحوطها يقف حائلا بين طرحها والوصول معها إلى إجابات جلية أو حلول قطعية، لكن السؤال يحمل بين طياته اللذة وإثارة الفضول أمر محبب عند الإنسان منذ فجر التاريخ.

لطالما أخبرني السيد "ثابت" معتمدا على حكمته التي نادرا ما حولها إلى واقع، أن الإجابات لا تمثل بالضرورة ما نحتاج إليه، لأننا بوصولنا إليها يشملنا السكون، والكثير من البشر لا يحبونه، وكلما شملهم، سعوا نحو الفرار منه بأي وسيلة ممكنة. وفي كل مرة كنت أوضح له بديهية كلماته وضرورة التأكيد عليها في نفس الوقت.

-18-

عندما يخر المرء صريعا مضرجا بالدماء، نشعر بالشفقة تجاهه وينتابنا إحساس حزين يتأجج بتلقائية كنتيجة لإدراكنا لما يمارسه الإنسان من توحش تجاه أخيه الإنسان.

لقد شاهدت مشهدا مشابها في إحدى المرات، وكان السيد "ثابت" وقتها شبيها بشخصية عنيفة من شخصيات أفلام العصابات المفعمة بالعراك والدماء. وقد أخذ ذو اللحية الحمراء يتحدث بلا توقف معبرا عن حنقه الشديد وكرهه العميق لشخصية الضحية التي انهال عليها الرجال بالضرب وممارسة العنف في الحال.

إن الكدمات التي لطخت جسد الرجل الضعيف لقنته درسا لا يمكنه أن ينساه، وقد كان قاسيا لدرجة أنه قد وعد سيده وقتها بعدم تكرار فعلته أو التفكير فيها بأي شكل من الأشكال.

كان من العاملين بالشركة وقد عرف بأمانته وبراعته، لكن تاريخه الأبيض قد تحول إلى أسود بعد تلاعبه المكشوف ومحاولته نهب بعض المال من أموال ذي اللحية الحمراء.

إنه لأمر محزن أن يتحول تاريخ طاهر مكلل بأكاليل الغار إلى سواد قاتم بعد فعلة واحدة نجمت عن طيش لم يكن في الحسبان. وكأن العقل الحكيم قد يسعي بشكل فجائي نحو القفز إلى البر الآخر المفعم بالغدر والشرور. لكن الواقع العجيب يخبرنا بأن الشرير يتمني باستمرار لو عاد به الزمان

ومكنه من استرداد طيبته المفقودة وحكمته القديمة، وهو ما يثير الفضول في كلتا الحالتين.

ولكن هل يحاسب شرير شريرا؟! هل يكون القاضي من جنس المتهم؟!

إنه لأمر غريب أن يحاسب السيد "ثابت" الذي قتل براءته ولوث يده بأفعاله العبثية رجلا بسيطا سرق منه بعض المال. إنه لأمر مفعم بالعبث والضبابية عندما يعاتب لص كبير لصا صغيرا. فلا يمكنني أن أنكر حقيقته رغم ولائي له، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن أنكر أنني تابع له. لكنني قد اعتدت أن أعترف بالحقيقة حتى لو كانت مظلمة وأن أتحدث عن الحق حتى لو كنت مخالفا له.

إن حالة الالتباس مألوفة ومعتادة، والعشوائية سيدة الموقف، لكنها عشوائية تخصنا وحدنا، عشوائية تشمل موقفنا كنتيجة لنظرتنا القاصرة، أما حكمة الإله فإنها أعلي منا وإدراكنا لها يعد مستحيلا.

وقد لاحظت يومها أن السيد "ثابت" قد أحس بضيق شديد بعد أن أدرك ما فعله بالرجل، وأخبرني بعد أن خمدت النيران أن المرء قد يقدم على فعل شيء غير منطقي لسبب غير معلوم رغم علمه بأن فعلته قادرة على ضخ الندم في كيانه بصورة لاحقة وأن عمله قادر علي إشعال ضميره بصورة متأخرة.

وقد أخبرته بأن اللجوء إلى العنف لا يعد حلا مناسبا في أغلب الأحيان وأن الكلمة الحكيمة والرحمة الواسعة بمثابة الحل

السليم في الكثير من الظروف والمواقف التي تحتاج إلى التروي والإنصات، حتى لو كان الجرم واضحا وضوح الشمس في كبد السماء. ورغم ذلك أخبرته بعدها أنه لا بأس بالعقاب في بعض الأحيان، خاصة عندما يصمم المرء على أخطائه ولا يرغب في العدول عنها كاشفا عن تمرده المتأصل وشره الدفين.

لقد فتشت كثيرا عن الحق والظلم، عن الخير والشر، عن الرحمة والعقاب، فتشت هنا وهناك بلا ثمرة تحصد أو نتيجة ترصد. يبدو أن الأمر لا يخصنا بأي شكل من الأشكال، لأنه يعود بمنطقية إلى الإله. لكننا كثيرا ما نفتش عن هذه الأمور كمحاولة منا لإدراك ذواتنا والتعرف على درجة إنسانيتنا وحقيقة أفعالنا، وهو ما يمثل الدافع المباشر وراء كل هذا البحث والتفتيش.

"أفكر دونما انقطاع بها، بيديها، بضحكاتها المتعالية والتي لطالما أسعدتني أصداؤها الرنانة، بابتساماتها الملائكية المعبرة عن البراءة والطهارة. لا يمكنني أن أتخيل حياتي دونها و لا أعرف طريقة لينة للتعويض عن غيابها، ورغم ذلك لن تسكن نفسي وتهدأ حتى أعثر عليها وأعيدها إلى حضني الدافئ الذي لطالما سكنته ونعمت فيه بالرغد والدعة. فلا بديل لي عن العثور عليها و لا مناص من استردادِها والانتقام من أجلها، وإذا صُبغت محاولاتي بصبغة العبث وكتب على الإخفاق والعجز، فحينها أكون قد أثويت بالجحيم، بل ربما أكون وقتها من قاطني أتونه المغبونين".

لقد قرأت هذا النص في مقدمة إحدى الروايات التي منحني إياها السيد "ثابت". كانت تدعي "عندما يكون النزول إلى الجحيم بسهولة النزول إلى المغطس"، وكان محورها محاولة أب استرداد ابنته المفقودة. لكن الغريب في الأمر هو أنني لم أتأثر بالأحاسيس الكامنة في صفحاتها، ولم أشعر بمجرياتها أو أحس بالعلاقة الجامعة بين الأب وابنته.

وقد أدركت بعد ذلك أنني لم أختبر مثل هذه العلاقة في حياتي قط، ولهذا لم أشعر بها أو أتأثر بصراعاتها. وقد لاحظت أن الرواية لم تعتمد على العلاقة بين الأب الحزين والابنة المختطفة فحسب لكنها اهتمت بالصراع النفسي المسيطر على الرجل والنزاع العميق بين الفضيلة والرذيلة والذي ألفه البشر منذ القدم.

لقد لاحظت اهتماما شديدا بالصراع بين الخير والشر، ورصدت اعتماد الكاتب علي ضمير المتكلم. ورغم عدم تأثري بالعمل على المستوي العاطفي إلا إنني قد شعرت وكأن الأمر كان يتمحور حول صراعه الشخصي الدفين.

انتقلت بعد ذلك إلى رواية ضخمة تدعي "دون كيخوته"، وأخذت أتنقل بين صفحاتها في انسيابية تامة، ورغم الإرهاق الذي نال مني أثناء القراءة، إلا إنني قد صممت على المضي إلى الأمام.

لم أصل إلى آخرها وتوقفت عن متابعة قصتها بعد أن رن جرس الهاتف، ليعلمني بضرورة الذهاب إلى منزل السيد "ثابت"، لأنه كان في حاجة إلى خدماتي.

كان السيد "ثابت" وقتها قد صار عربيدا كبيرا، وقد تأكدت من ذلك عندما وجدته في حالة لا تليق به ولا يمكنها أن تتماشي مع رجل ذي شأن كبير في وسط الأعمال والتجارة.

كانت فتاة عارية تمتطيه وكأنه فرس قد فقد لمعانه، وكانت فتاة أخري برداء داخلي غريب تسخر منه وتصب عليه الخمر بترف وإسراف.

لم أعهده في مثل هذه الحالة من قبل، كان ضعيفا ذا وجه باهت ينم عن التيه والهشاشة، وكان جسده في حاجة إلى الراحة والنوم، لكنه رغم ذلك لم يفهم مطالب جسده ولم يمنحه ما كان يحتاجه.

وقد سألته عن سبب استدعائه لي، فأخبرني بصوت منخفض بأنني قد زرت خياله فجأة، فقرر أن يطلب مني القدوم، لعلني أشاركه لهوه وأنعم ببعض المتعة الزائفة.

لقد قرأت في كتاب يدعي "الجنس والموت" أن الرغبة الشديدة في الهروب من الواقع ترتبط بالعقليات السوداوية، لكن سوداوية السيد "ثابت" لم تكن مبررة، لم تكن ناجمة عن عقبات كثيرة أو صراعات عديدة على المستوي الظاهري، ورغم ذلك كانت دواخله تائهة على ما يبدو.

قد يكون نزاعه الداخلي مصدرا لسوداويته وقد تكون ناجمة عن أسباب أخري لا أعرفها، وفي نهاية الأمر لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن كل البشر يمتلكون جانبا سوداويا بشكل من الأشكال. ورغم ذلك لا يفصح الكثيرون عنه، ولا يبرزه إلا عدد منهم، إلا أن هذا العدد قد تزايد بصورة واضحة في الآونة الأخيرة.

لم أشاركهم ما كانوا يفعلونه، وعدت سريعا إلى منزلي، بعد أن تسللت إلي كياني مشاعر التوتر والحيرة. لقد أحسست بأن الخطر قد صار قريبا من الرجل، وأن أعماله قد صارت معرضة للانهيار، لأنه قد فقد القدرة على تحمل المسئولية في الفترة الأخيرة، وكأن الملل قد تسلل إلى حياته، فقرر اللهو والعبث والقفز إلى بحر التيه والفقدان.

إن الانهيار يهدد الكيان، وصاحبه أشبه بالنيام، والأمان صار بعيدا عنا بعد أن كان رفيقا لدربنا العجيب والمفعم بالتلافيف.

-20-

أجد نفسي فجأة ملقيا على قارعة الطريق، يجري حبيبان أمامي لكنني عاجز عن التمعن في ملامحهما، مطر غزير يتساقط، سماء مظلمة تحلق فوقنا وصراعات الطبيعة تضعنا في حسبانها رغم ضعفنا وهشاشتنا. يقتربان مني ويبتسمان لي، أري مراهقتي فيهما، أتأمل وجه الفتاة فأحس أني أعرفها، أشعر بشيء ناحيتها، شيء يسكنني ويرغب في الخروج إلى العلن، مشاعر متضاربة تتلاعب بكياني، إحساس دائم بالفقدان والافتقاد يهددني، رغبة عارمة في إدراك الاستقرار النفسي والسلام الداخلي تلم بي، ورغم ذلك أعجز عن بلوغ رغباتي وأفشل في التمكن من رغائبي. تتقدم ناحيتي وتقدم لي وردة حمراء جميلة المنظر، لا تعبأ بالمطر وتنسجم مع تساقطه عليها، ترسم ابتسامة على وجهها وتودعني كي ترحل مع حبيبها المتلهف.

أجد نفسي فوق سريري بعد أن أستيقظ من نومي. أنهض عنه وأتوجه إلى النافذة المطلة على الشارع لعلني أحظي ببعض نسائم الفجر الطرية.

لا أعبأ بحلمي، وأتأمل حال السيد "ثابت"، حاله المتدهور الذي أصبح مؤخرا مصدرا مباشرا لإزعاجي. فولائي تجاهه يمنعني من تجاهل موقفه، وحرصي على العمل لا يسمح لي بالهدوء أو التلافي.

لكن الأفكار المسيطرة على عقلي سرعان ما تتلاشي، وأجد نفسي راغبا في النوم من جديد. يأتيني الرجل في منامي، أجده يناديني ويطالبني بولائي، يبحث عن المساعدة فأقدمها له ويطلب

الاستشارة فأحاول أن أقدم إليه النصيحة، رغم معرفتي بحكمته العظيمة التي كانت توظف ضمن الإطار النظري في أغلب الأحيان.

وبمجرد انتهاء الحلم، يأتيني حلم جديد تقطنه امرأة غريبة لم أعرفها من قبل ولم أر لها مثيلا. على سطح العمارة، تتمايل أمامي بثوبها الأبيض الشفاف محاولة إثارتي وامتشاق سيفي، بينما أجلس على كرسي خشبي متأملا سطوة النجوم في سماء ساحرة توجت ليل شتاء مظلم وكئيب. ورغم برودة الجو إلا إننا قد صممنا على سلوكنا الغريب، وقد ارتفعت بالنغمة وبالغت في رقصاتها معبرة عن غضبها العارم والناجم عن عدم عبئي بما تقدمه وعدم اهتمامي بمحاولتها جذب أنظاري.

الأنثى تحاول باستمرار أن تجذب الأنظار، وإذا لم تنجح في تحقيق مرادها معتمدة على نظرات عينيها ونبرة صوتها، تبدأ في التعري والكشف عن مفاتنها، لتنخرط بعد ذلك في متابعة نظرات من يتفاعل مع تصرفاتها ويقع في مصيدتها، ولتشملها في النهاية نشوة زائفة تشعرها بقوة فارغة.

لكنها لم تكن امرأة عادية، فقد كانت شديدة الروعة، وكانت أشبه بالنجمة السينمائية التي تشع جاذبية وجمالا. ورغم علمي بحيويتها ورونقها، إلا إنني لم أعبأ بما تقدم ولم أهتم برقصاتها أو مداعباتها. لكن الأمر لا يختلف عن واقعي المفعم بالعمل، ذلك العمل الذي لطالما دمر حياتي العاطفية، مما أدي إلى غياب الرفيقة عني حتى يومي هذا.

-21-

في إحدى المرات، جلسنا مع عدد من أصدقاء السيد "ثابت"، وأخذنا نتحدث عن الزمن الذي نعيشه والأيام التي تلاعبنا وتسخر منا. وقد تحدث أحد الجالسين عن حقيقة الدنيا وأوهامها التي تبثها في عقولنا باستمرار وسذاجتنا التي تدفعنا إلى مجاراتها والتجاوب معها.

تحدث عن أحلامه في صغره، وتابع كلماته ليعبر عن حقيقة أنها لم تعد قابعة في عقله، وأنه قد تخلص منها لأن تحويلها إلى واقع لم يعد أمرا ممكنا. لكن الغريب في الأمر هو أن الرجل المعبر عن الفقدان والضياع كان من كبار المدينة وكان معروفا بسلطاته العديدة، ولهذا سألته عما فقد وحاولت أن أتعرف على ما كان يلاعبه في صغره.

ورغم شيبه وكبره، إلا إنه قد أخبرني بأن ما فقده كان جوهرته الثمينة التي لم يكن لها مثيل. كانت شابة صغيرة أحبها وأحبته، لاعبها ولاعبته، شاركها حلمها وشاركته حلمه، لكن القدر منعهما من المواصلة والظروف لم تكن في صالحهما. وقد حاول الاتصال بها بعدما صار ذا قوة وتأثير، لكن زواجها من رجل آخر حال بينهما فكان من التائهين. وقد تحدث عن أمور أخري من هذا القبيل وسرد الكثير من الأسرار التي لم يكن من الضروري سردها أو التطرق إليها.

نظر الدوغمائي إليه متعجبا من كثرة تحدثه عن نفسه وأخبره بأن الأحلام الكثيرة لا تنتج سوي من عقليات فقيرة لا تفهم الواقع ولا ترغب في الاعتراف بالحقيقة. وحينها نظر إليه الرجل

متعجبا من أمره ومخبرا إياه بأن الوهم ضرورة والحلم مشروع وأنه من المعروف أن الحياة لا تسير بلا أمل حتى لو كان ممزوجا بالكذب على النفس أو التحايل عليها.

بلحيته الحمراء الغريبة ونظراته المريبة والعجيبة، ساد الدوغمائي الموقف ورفع صوته معبرا عما يكمن بداخله بطريقة بربرية وعصبية عشوائية.

أخبرنا عن خطورة الوهم وكونه مجهدا ومتعبا، تحدث عن حقيقة أن الأوهام قد تخلق ضغطا نفسيا على المدي البعيد، خاصة عندما ترتفع التوقعات وتصل إلى السماء، لأننا حينها نفاجئ بالفرق الكبير بين ما تراه العقول في خيالها المجنون وما تشهده بوضوح في واقعها الغريب المفعم بالتلافيف.

عبر عن حقيقة أنه لم يعد قادرا على مجاراة أوهامه ومتابعتها، وأنه قد فقد الأمل مؤخرا لسبب مجهول، رغم نجاحاته العديدة التي حققها في حياته. أخبرنا بأن الإنسان قد يفهم الكثير من الأشياء ورغم ذلك لا يجد المعني في أي شيء، وأنه لولا الفن ومحاولات الهروب لكان أسير الأحزان والأشجان.

رد عليه أحد الحاضرين موضحا له حقيقة أن الهروب يعبر عن ضعف داخلي عميق وأن الخيال المرتبط بالفنون ليس بالحل الأمثل عند الكثيرين. ووضح له بأنه يخلط بين الأمور متعجبا من مزجه بين الفن والهروب، فالأول مفيد بالنسبة إلى محبيه والثاني قد يكون ممرضا ومميتا بالنسبة إلى راغبيه على المدي البعيد.

لكن الرجل الذي زينت وجهه لحية ذات حمرة جلية، أحس بالحرج، وتسلل الاضطراب إلى كيانه بسرعة شديدة، رغم أن الأمر لم يتطلب كل هذا الانفعال أو الاهتمام.

أخبره بنغمة عالية نجمت عن حنجرة غاضبة أن الأمر مختلف بالنسبة إلى كل إنسان، وأنه من المتاح لكل فرد أن يشعر بجمال الفن وأن يتنفس رائحته العطرة، لكن الإحساس بالفنون لا يأتي إلا بعد ملء البطون. وبالنسبة إلى الهروب، فقد أخبره بأن الأمر يخص الفرد وحده، فرغم كون الخمور والمخدرات أمرا منبوذا أو جرما كبيرا بالنسبة إلى الدين والمجتمع، إلا إنها ملجأ مباشر للكثيرين ممن لا يجدون قدرة كافية للتعامل مع الواقع أو تقبل مجرياته وممن يمتلكون حساسية زائدة عند تفاعلهم مع أمور الحياة.

وحينها رد عليه أحد الحضور موضحا له بأن إنكار الحقيقة لا ينجم سوي عن عقليات مغيبة، وأن الواقع يخبر العقلاء بأن الهروب المعتمد على وسائل غير شرعية جرم كبير والهروب المتكرر حتى لو اعتمد على وسائل شرعية أمر غير محبب وقد يدمر حياة الإنسان.

وبينما كنت أتابع الأحاديث الدائرة بين الأغنياء ممن غابت عنهم صراعات الواقع المرتبطة بلقمة العيش والتي يعيشها المواطن البسيط، ارتفع صوت أحدهم معبرا عن تعجبه من أمر السيد "ثابت" وموضحا له إحساسه بأن تغيرا كبيرا قد نال منه وأن فيضانا فجائيا قد اجتاح معتقداته، رغم أن التغير بالآراء يكون تجاه كل ما يقبل ذلك لا ما يتصل بالمعتقدات والثوابت.

وقد رد السيد "ثابت" موضحا للحضور بأنه لم يبد رأيه في الثوابت ولم يحاول أن يتهرب من الحقائق، لكنه اكتفي برصد ما يحدث أمامه وما يقدم البشر علي فعله، رغم علمهم بكونه مخالفا لتعاليم الإله.

تحدث أحدهم معبرا عن رأيه فيما يخص عناصر الهروب، ومؤكدا على أن الجنس المحرم والخمور المخدرات، كلها، أمور تؤذي الإنسان نفسه و لا تؤذي أحدا غيره، وأنه من الأفضل ألا نتحدث عن أمور تعود إلى الإله وحده.

وقد تدخل أحدهم موضحا أن الآراء ليست بقادرة على تغيير الحقائق، فرأي إنسان لم يتجاوز المائة عام لا يمتلك القدرة اللازمة لتغيير ثوابت مرت عليها قرون، وأنه من الضروري أن يدرك الإنسان حقيقة الأمور والتي تتمثل ببساطة في أن أجسادنا لا تخصنا وليست ملكا لنا، ولهذا من الضروري أن نحافظ عليها وألا نهينها بأي شكل من الأشكال.

وقد تابع كلماته موضحا أن الله يلعن شارب الخمور وكل ما يتصل بها كما يقول النبي، وأن الإسلام يعتبر الزنا الجريمة الثانية بعد القتل مباشرة، وأن المخدرات تقلل من شأن الإنسان وتجعله تائها وذا عقل متأرجح مضطرب على المدي البعيد.

وقد تدخلت سريعا موضحا أن بعض الأمور قد تكون بمثابة الابتلاء وأن أمورا أخري تعود إلى اختيارات الإنسان وأن الصراع بين الفضيلة والرذيلة أمر غريب، ورغم ذلك يبقي الحساب أمرا هاما لأنه أساس الوجود، وفي نفس الوقت تعد الرحمة الإلهية

بمثابة المخلص لنا والمساند لكياناتنا التي نال منها التشتت بسبب حماقتنا وغابت عنها راحة البال بسبب طيشنا.

خرج أحد الحاضرين بغتة موضحا لنا أن الحساب أمر رئيسي في الفكر الإسلامي، وأن الحلال بين والحرام بين، وأن الرحمة الإلهية أمنية الجميع، وأنه من المستحيل أن ننكر حقيقة أن الجنة درجات وأن من حصل على شيء بصورة غير شرعية في الدنيا سيحرم منها في الآخرة، وفقا للكثير من النصوص.

وقد انتقلنا بعد ذلك إلى موضوع يخص العمل، وأخذنا نتحدث عن الكثير من التعقيدات التي نالت من الأعمال بأشكالها المختلفة مؤخرا، وتتابعت الكلمات حتى خرج السيد "ثابت" معبرا عن امتعاضه الشديد الناجم عن الكساد الاقتصادي الكبير، ورأيه القائل بضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة للتخلص من الكوارث الراقدة التي صارت عديدة وصار ظهورها إلى العلن قريبا.

وقد شعرت أن حماسة الرجل تجاه العمل قد تأججت من جديد وأن القدر قد يضع الأمور في سياق جديد، يحثنا على التقدم إلى الأمام ويدفعنا نحو الربح والفائدة، رغم أن دواخلي سرعان ما ذكرتني بكثرة المخالفات النائمة تحت أعمالنا القائمة.

وقد انتهت الجلسة في سلام دون صراع واضح أو نزاع ملتهب، وغادرنا المكان مع غروب الشمس الجميل وسط أصوات العصافير التي كانت تستعد بوضوح من أجل النوم الممدوح من قبل الجميع.

لطالما كنت محبا للمأكولات الغريبة، وقد تعرفت على عدد كبير منها عندما اصطحبني ذو اللحية الحمراء إلى مطعم عظيم في إحدى الليالي الأنيقة التي رافقتنا فيها فتاة جميلة ذات ثوب أسود قصير يكشف عن الكثير.

وقد جلسنا سويا محاولين الانسجام مع الأجواء المحيطة والتمتع بالخيرات اللذيذة، والتي كانت من بلاد آسيوية غريبة واحتوت على أصناف متعددة شهية وبهية.

وقد ضرب الليل علينا، وتشعشعت الأنوار الفاتنة في الأرجاء، وأخذت الجميلة تحدثنا عن الكثير من الأمور الخاصة بحياتها، وكأنها كانت تعرفنا منذ أمد بعيد. فتحدثت عن علاقاتها الفاشلة وأحلامها الطائشة وتوقعاتها العبثية وخيالاتها الوهمية، وانتقلت بعد ذلك إلى موضوع كبير يخص العصافير، تلك العصافير التي تقدم الكثير من التنازلات من أجل الشهرة والأموال.

تحدثت عما تتعرض إليه الفتيات حينما يبحثن عن العمل، وأخبرتنا بحجم الصعوبات والتنازلات التي تقدم من أجل الحصول على شهرة زائفة أو مال فان. فقد كانت ممثلة صغيرة تسعي نحو الوصول إلى طريق الشهرة المحفوف بالمخاطر والمفعم بالحفر والتوترات، وكانت ممن رفضن ما عرض عليهن وعانين من صراعات عميقة نجمت عن تحرشات غريبة، تحرشات لم تصدر إلا عن حيوانات ذات كروش كبيرة ورؤوس مغطاة بالبياض.

أخذت تتحدث بلا توقف، نزل من عينيها سيل من الدموع، حضنها ذو اللحية الحمراء وأخبرها بضرورة ألا تتأثر بالماضي، وانهال عليها بالكثير من الكلمات التي من شأنها أن تساعدها على المضي إلى الأمام.

لكن الغريب في الأمر هو أن الإنسان قد يمضي إلى الأمام رغم علمه بالجحيم الذي ينتظره، وكأنه يجذب إليه رغم أنفه، وكأنه يجبر على التحرك دون قدرة على الرجوع إلى الوراء. فقد كانت الفتاة تائهة وكانت تقحم صراعاتها في الحديث طوال الوقت دون كلل أو ملل، مما سمح للشك أن يساورني حيال حالتها النفسية والذهنية، وهو ما أكد لي على حقيقة الحياة.

فالحياة لا تمنح أحدا فرصة جديدة إذا سمح لعقله بأن يتلاعب به، وإذا تجاوب مع ما يقدمه إليه من صراعات ووساوس. وهو ما حدث مع الفتاة الساذجة التي سمحت لصراعاتها المتعددة بالنيل منها، ومنحت وساوسها التي لا تحصي قوة خاصة أهلكتها ونالت من جسدها ونفسها وروحها.

وقد شعر السيد "ثابت" بحجم الحزن المهيمن على الفتاة، ونالت منه أفكار عبثية تلخص مضمونها في إمكانية وصوله إلى حالة شبيهة، لأن عقليته المفعمة بالصراعات وأحاسيس التشتت والفقدان قد صارت مكتظة بالهراء وصار الانفجار أمرا وشيكا.

-23-

في إحدى المرات، نزلت إلى الشارع مهرولا بعد أن اتصل بي السيد "ثابت" موبخا إياي على تأخري وعدم التزامي بالميعاد المتفق عليه.

وقد وصلت إلى مكان العمل وشرعت في القيام بما ينبغي القيام به. وبعد أن انتهيت، جاءني مديري ومعه فريق من ثلاثة أشخاص، ونزلنا إلى الشارع متوجهين إلى أحد المطاعم الكبيرة، لنحصل على بعض المأكولات الفريدة.

جلسنا في تناغم تام، وطال الحديث بلا توقف حتى كدنا ألا نعبأ بالطعام، وأخذت الكلمات تتعالي حتى أرهقتنا نغمتها متعددة الترددات. ووقف الحديث عند نقطة أحدثت الكثير من الضجات.

تحدث أحد الحاضرين عن ضرورة الارتقاء بقسم الدعاية الخاص بالشركة وأخذ يتكلم عن أهمية التخلص من بعض الأفراد العاملين به، لأنهم قد أصبحوا بمثابة العبء على المكان وصار وجودهم بلا طائل أو فائدة. وقد نظر إليه الدوغمائي بنظرة شرسة نمت عن غضب شديد علي وشك الخروج إلى الطاولة، ليزيد من وطأة النقاش المنعقد وحدة الحديث المضطرب.

تحدث ذو اللحية الحمراء عن قسم الدعاية وحقيقة أنه لم يكن في حاجة إلى التعديل أو التطوير، وتابع كلماته معبرا عن جهل المتحدث بحقيقة ما يردده على لسانه، وغياب الصورة الكاملة عنه.

وهو ما دفع الرجل إلى الاحتجاج معبرا عن تعجبه من أسلوب السيد "ثابت"، ومؤكدا على حقه في الإدلاء برأيه طالما أنه لا يحمل إساءة أو أي تجاوزات. وقد رد عليه الدوغمائي مخبرا إياه بالفرق الكبير بينهما وموضحا له حقيقة أنه سيده وكبير شركته.

لم يغب عنه إدراكه لدوغمائيته، لكنه كان يمارسها تلذذا بها وحبا لها، وهو ما أخبرني به في إحدى الليالي. أخبرني بأنه كان علي علم بتكبره واهتمامه برأيه وعدم عبئه برأي الآخرين، ووضح لي أنه كثيرا ما استخدم نفوذه وسلطته ومركزه لممارسة ما يمتعه ويمنحه قوة تشعره بالسيطرة والتملك.

تحدث عن حقيقة أنه لم يمتلك هذه الرفاهية إلا في وقت متأخر. فعندما صار ناضجا وقادرا على مخالطة الناس والتعامل معهم، نجح في السيطرة على عقولهم، لكن هذه الحالة لم تشمله في صغره، صغره الذي كان قادرا على الحد من ممارسة ما يمتعه ويثبت قوته ويؤكد على أهميته.

ورغم بديهية ما كان يتحدث عنه، إلا إنه قد توقف عند نقطة أحدثت طفرة في نقاشنا، حيث أنه قد تحدث ليلتها عن أحلام الطفولة والمراهقة.

أخبرني بأن الخيال لا يمت إلى الواقع بصلة، وتحدث عن تخيلاته الخاصة بنجاحاته التي رغم تحقيقها إلا أن الإحساس بها لم يصل إلى ما كان في الحسبان. فقد عبر لي عن حقيقة أن الإنسان لا يرضي بشيء وأنه كلما وصل إلي نصر أو نجاح رغب في المزيد، وأن هذه الحلقة المفرغة لا تتوقف ولا تنقطع، وأنه رغم الألم

والجهد المصاحب للذة الناجمة عنها، إلا أن محاولة الخروج منها قد تؤدي إلى فقدان المعني، والعزوف عن متابعة ما يحدث بداخلها قد يؤذي النفس والوجدان بعد أن يشعر المرء بعدم جدواه.

كان شاعريا ليلتها، اختلطت فلسفته بحسه الفني فانبثقت من بين أحضان كلماته أطياف منيرة من المشاعر والأحاسيس، وهو ما دفعني إلى الانسجام مع ما كان يقصه على والإنصات إلى ما كان يصدر عنه.

تحدث عن الكثير من الأمور التي كانت تثير المشاعر والوجدان. تكلم عن الحب، عن السعادة، عن الصراع. لكن ما حرك تساؤلاتي وأثار استغرابي كان يكمن في اعترافه بتمسكه برأيه وفرضه لأفكاره على غيره. لكنه كان يري أن الهجوم المبني على التعميم ينم عن ضحالة الفكر والاعتماد على الوهم بهدف إراحة العقل، وأن المرء بسذاجته قد يمنح من يحاوره تصنيفا شاملا اعتمادا على موقف واحد بينهما أو كلمات معدودة تصدر عنه.

كان ينظر إلى نفسه على أنه مثقف كبير، وكان ينظر إلى دوغمائيته على أنها أمر من الممكن تجاهله وأنها لا تمنعه من أن يصبح مطلعا على شتي أنواع المعرفة أو أن يصبح قادرا على الإلمام بخفايا الكثير من الأمور.

وقد تحدثت معه عن حقيقة أن الإنصات إلى ما يقوله الآخرون ليس بالأمر الصعب، وأن تقبل الآخر ليس بالأمر المستحيل، وأن

الموضوع بأكمله يتصل بالصبر والتقبل والتواضع، وهو ما يمكن الوصول إليه مع الوقت.

وقد أخبرني بعدم قدرته على التقبل، وحدثني عن حقيقة أن الأمر لم يكن بالسهولة التي كنت أتخيلها وأن الإنسان يصعب تغييره أو تعديل ما يصدر عنه بين ليلة وضحاها.

-24-

أتذكر تلك اللحظات التي جمعتني بالسيد "ثابت" في الشاليه الذي ابتاعه منذ أن كان شابا يافعا. كنا نقضي الأيام و الليالي مفعمين بالبهجة و التفاؤل. كان البحر يلاعبنا وكنا نلاعبه، كنا نتبادل النظرات معه، وكانت الشمس تنير الوجود لنا.

كنا نصطحب الأصدقاء معنا في الكثير من الأوقات، وكان السيد "ثابت" نشيطا وقتها، فكان نشاطه ممتدا إلى كل مكان وكانت حركته لا تعرف حدودا.

لقد نالت الكثير من التغيرات منه مؤخرا، فأصبح مختلا يتأرجح بين جانبين دون أن يصل إلى توازن أو استقرار. فصار إحساسي بقدرته على العودة إلى الإيجابية التي عرف بها فيما يخص العمل وهما، وأصبح اعتقادي بقدرته على مجاراة أعماله والإلمام بها كما كانت في سابق عهده ضربا من العبث.

اعتزل الرجل أعماله وسافر إلى أوروبا بهدف الاستجمام والحصول على بعض الراحة. وعندما عاد إلي موطنه لم يشعر بأنه قد أخذ كفايته من الراحة التي كان يرغب بالتمتع بها، فسافر من جديد ورافقته وقتها إحدى حبيباته المتأنقات.

اهتممت بالأعمال وقمت بالكثير من الأمور التي من شأنها أن تحافظ على استمرارية العمل وتحقيق الأرباح التي اعتدنا حصدها. وعندما عاد السيد "ثابت" بعد رحلته الثانية والبعيدة

عن المنطق، أخبرني بأنه لم يعد قادرا على مجاراة أعماله، مما أثار دهشتي وفضولي.

فقد تحدث الرجل عن الإرهاق، عن الملل، عن الضجر، فلم يعد قادرا على الاستمتاع بعمله وكأن الشغف قد هرب من كيانه وغادر حياته إلى الأبد.

أحسست وقتها وكأنني أتحدث إلى رجل عجوز، رجل نال الشيب منه فأرهقه، لكن ما نال منه لم يكن متعلقا بجسده بل كان مختصا بروحه، انهال عليها بالضربات فأنهكها وخطف بريقها.

مضت الشهور بلا توقف، وكنت مسئولا عن كل شيء، فكان العمل مبنيا على مجهوداتي وتوجيهاتي، وكان الجميع يتفاعلون مع أوامري باستمرار ليحولوها إلى واقع ملموس وإنجاز محسوس.

وبالرغم من تفكير الأغلبية بأن العمل كان مفعما بالصراعات وأن الإنتاج كان محفوفا بالمخاطر، إلا إنني لم أعبأ بأفكارهم وكنت مصمما على المضي إلى الأمام والقيام بما يجب القيام به حتى يعود السيد "ثابت" من إجازته المطولة ويصبح قادرا على مجاراة أعماله من جديد.

كنت وقتها قد نجحت في الهروب من أجواء المجون التي شملتني لفترة مطولة بعد أن أحاطني بها السيد "ثابت" بإصرار، وكنت علي علم بأن الرجل لم يتب ولم يكن راغبا في التخلص من أفعال العرابدة. وقد شعرت بأن روحه قد أظلمت كنتيجة لما كان يفعله وأن نفسه قد أنهكت كنتيجة للعالم الشيطاني الذي

أقحم نفسه فيه وصمم على التنقل بين جنباته، رغم علمه بأن أفعاله لم تكن تليق به وأن تصرفاته لم تكن مناسبة لمكانته وسنه.

كانت الحقيقة كامنة بداخله، كانت راقدة في العمق تلاعبه وتشعره بخطورة مسلكه بين الحين والآخر، لكنه رغم ذلك لم يكن يعبأ باضطرابات قلبه. وبتجاهله المستمر لها، نام الضمير واختلط الأمر على حامله، فصبغت أفعال الخير والشر بنفس الصبغة وأصبح يعامل الخطأ على أنه صواب وصارت الأمور ممتزجة لدرجة أن فصلها أصبح مستحيلا وصار التخلص من تبعاتها أمرا بعيدا عن الإدراك.

-25-

جلست في إحدى المرات لأقرأ رواية تدعي "مشروع روزي"، وقد كانت مفعمة بالكثير من الأمور الرومانسية التي لم أختبرها قط، وكانت الحياة الاجتماعية وتعقيداتها جزءا رئيسيا منها، وقد مثلت التغييرات التي سيطرت على الحبيبين أمرا محوريا، وكانت الأجواء الساخرة والمفعمة بالتفاؤل محورا من محاور العمل.

وبعد أن انتهيت منها، اتجهت إلى التلفاز لأشاهد فيلما غريبا يدعي "تحت الجلد"، وكانت قصته تتمحور حول امرأة غريبة من عالم آخر، امرأة تتخلص من الرجال بعد أن تأخذهم إلى العالم الموازي الذي تسكنه، وكأنها تجذبهم بمفاتنها البارزة لتنتقل بهم إلى عوالم مزعجة.

وقد لاحظت أنني قد تعرضت إلى بيئتين مختلفتين دون فاصل، وأدركت أن الرواية كانت مفعمة بأجواء التفاؤل وأن الفيلم كان مدمرا لما نلته منها. وبتفلسف عميق، أخبرت نفسي بأن الإنسان لا يعيش في بيئة واحدة ذات صفات محددة باستمرار، لأن التغير سرعان ما يتلاعب بالملامح، ليخلق أجواء جديدة ويمنح التجربة بعدا مختلفا.

ورغم أنني قد أحسست كأنني ناقد فني يحاول أن يخلق كلمات فلسفية وفنية معتمدا على ما يتعرض إليه من محتوي، إلا إن الاستمتاع وقتها كان في أشده، وكانت المتعة في قمتها، وحينها تذكرت الأقوال المعروفة التي دائما ما تخبرنا بأن الإنسان قادر علي الاستمتاع بالأمور الصغيرة إذا رغب حقا في ذلك.

نعم، إنه قادر علي الوصول إلى مبتغاه على المستوي الحسي، وقادر على بلوغ هدفه المتمثل في الإحساس بالسعادة، لكنه دائما ما يشغل نفسه بما لا يجب أن يشغل العقل به، ويرهق ذهنه بما لا يهم و لا يفيد.

إنه الإنسان، ذلك الكائن الغريب المفعم بالتناقضات القادرة على خلق كائن مشوه في نهاية المطاف. إنه الإنسان، ذلك الكائن الذي يتحرك عقله وفقا لسياق غير مفهوم، فينشغل بالمشكلات الكبيرة وينسى الصغيرة، وعندما يتخلص من الصراعات الكبرى يعود إلى الأمور التافهة، وكأنه لا يعرف الراحة و لا يدرك السكون إلا مع الموت، وكأنه عاجز عن الوصول إلى حالة من الهدوء الذهني والفكري بأي شكل من الأشكال.

أتذكر تلك اللحظات التي دخلت فيها علي السيد "ثابت" فوجدته مرهقا من جراء التفكير الزائد عن اللزوم ومنهكا كنتيجة لنمط حياته الغريب. يبدو أنه لم يعد قادرا على تحقيق التوازن بين عمله ومجونه. ورغم شغفه الذي عرف به تجاه عمله، إلا إنه لم يهتم به عندما دخل في مواجهة شرسة مع الترفيه والهروب.

مالت الكفة إلى الهروب، أصبح مهتما بمزاجه الخاص أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، وكأنه قد مل الوجود وصار مهووسا بالفرار.

لطالما رأيت أن هذا الرجل كان في حاجة إلى زوجة وأبناء مثلما كنت أحتاج، أنا الآخر. لكنه لم ينصت إلى قط فيما يخص هذا الشأن، ولم أكن أنصت، أنا شخصيا، إلى ما كان يمليه على عقلي فيما يخص الشأن عينه، مما أدي إلى خوفي من أن يكون

مصيري شبيها بمصيره، وقلقي من أن يتسلل الملل والضجر إلى جنبات حياتي في وقت ما.

حوط الرجل نفسه بالفتيات الفاسقات، لم ينجح في الحصول على امرأة طاهرة تحوطه بالاهتمام والرعاية وتقدم إليه العفة والطهارة، وكأنه كان محبا لروائح العفن التي تصدر عن العاهرات، وكأنه قد صار غافلا عن الأخلاق التي كان من المفترض الالتزام بها والإعلاء من شأنها.

كانت المخدرات والخمور تحوطه وكانت النساء تنهب أمواله، وقد أصبح تائها لا يعي شيئا ولا يفهم ما يجري حوله، والغريب في الأمر أن كل ما ظهر بغتة على الساحة كان متصلا برغبته في التمرد والتخلص من الرتابة التي نالت من حياته والملل الذي سيطر على كيانه فأفقده كل شيء فيما يخص الشعور والإحساس والإدراك.

إن الحياة ترتبط بالأولويات، والأولويات تتغير باستمرار، والأمر يصبح معقدا عندما يفقد المرء الأمل في عمله، رغم نجاحه، ورغم علمه بأهميته وضرورة استمراره.

-26-

في مكتبة السيد "ثابت"، وجدت الكثير من الكتب التي أثارت إعجابي وفضولي، وأخذت أتنقل بين عناوينها التي لا تنتهي و لا تعرف حدودا. ورغم كثرتها وعظمة محتواها، ورغم حثه لي في الكثير من الأوقات على التزود بما فيها من خيرات، إلا إنه قد عزف مؤخرا عن المتعة المصاحبة لتصفحها، وعمد إلي حياة المجون دون رغبة في استجلاب أحوال الطمأنينة والسكون.

كتب لنيتشه مفعمة بفلسفاته الغريبة، كتب لجان بول سارتر لا أعرف من أين جاء بها، كتب لباسكال لا أفهم سبب شرائه لها، كتب للفارابي وابن سينا وسقراط وأفلاطون وأرسطو، روايات لنجيب محفوظ وأخري لتولستوي، كتب تحوي قصصا لتشيخوف، عناوين كثيرة لا حصر لها، ومعرفة عظيمة تسكن بداخلها.

وفي إحدى الليالي الجميلة، اصطدت واحدا منها، كان عنوانه "ما وراء الخير والشر"، ذلك الكتاب الذي استند فيه نيتشه على أفكار كتبه السابقة، خاصة كتابه "هكذا تكلم زرادشت".

قرأت أن الرجل قد انتهي من كتابته في شتاء 1885-1886، وأنه قد أرسله وقتها إلى أحد دور النشر، لكن الرفض كان سيد الموقف، مما دفعه إلى الإنفاق عليه بصورة شخصية. وقد تعجبت من مهاجمة الرجل للكثيرين واتهامه لهم بانعدام الحس النقدي وقبولهم السلس للمسلمات.

لقد رأيت أنه كان عملا جريئا يحمل بداخله بعض التخاريف، ولاحظت أنه كان يعمد إلى التمرد من أجل التمرد في الكثير من الأوقات، وأنه لم يكن ساعيا نحو هدف مثمر أو شيء من هذا القبيل.

وعندما انتهيت من قراءته، وجدت السيد "ثابت" وكأنه شبح بينما كان يخرج من غرفته، ورأيت في ملامحه الإرهاق والتعب، ولاحظت على وجهه الخوف والقلق. وقد خرج إلى الغرفة الواسعة وأخبرني بإمكانية عودتي إلى منزلي إذا كنت راغبا في ذلك. وحينها أخبرته بأنني اعتدت المكوث في منزله والوقوف إلى جانبه، وأنه كان من المحبب بالنسبة إلى أن أقضي معه هذه الفترة الغريبة التي سيطرت فيها على ذهنه الكثير من الأفكار العجيبة والمفعمة بالإحباط والتدهور، رغم إنجازاته المشرقة وشركاته الناجحة، والتي رغم تسلل التلاعب والفساد إلى ممراتها، نجحت في أن تكلل بوسام الشرف وأكاليل الغار، من حيث المنظر العام والواجهة الخارجية للكيان.

جلس معي ليلتها، وأخذ يحدثني عن محتوي الكتاب، وكانت كلماته بعيدة عن الاتزان، بينما كان عقله مفعما بالتشتت والتيه. وهو ما لاحظته سريعا، وأرجعت أسبابه إلى ما يخفي وراءه من عناصر هروب، شكل المجون مصدرها ومثلت السوداوية الزائدة عن اللزوم منبعها.

خرجت منه الكثير من التخاريف، وأخذ يسب الفلاسفة الذين لطالما قرأ كتبهم، وعمد إلى الذم أكثر من الاهتمام بالمدح، وأخذ يتحدث عن الجميع بصورة غريبة سيطر عليها التهكم وكانت السخرية صبغتها التي صبغت بها.

لم يعرف حديثه توقفا، وكان يتنقل بين الموضوعات كبحر لا نهاية لأمواجه، مما دفعني إلى محاولة التدخل والسعي نحو التطرق إلى موضوع واحد، لعل الاستقرار يشملنا والطمأنينة تحل علينا.

جينالوجيا الأخلاق، العود الأبدي، إرادة القوة، وغيرها من المصطلحات والأمور الغريبة التي أخذنا نتحدث عنها. ورغم تشعبها إلا إنها كانت تنتمي إلى موضوع واحد، وكان محورها التفلسف، التفلسف لا أكثر ولا أقل.

كانت الشموع تزين جلستنا، وكان الهدوء سيد موقفنا، وكنا منخرطين في التفلسف حول قضايا نيتشوية، حول مطرقته، حول أوهامه، حول أفكاره.

تحدثنا عن الكثير من الأمور الشائكة، ولم تنجح محاولاتي الهادفة نحو التطرق إلى موضوع واحد، لم تنجح طريقتي في إدراك ما كنت أسعى نحو إدراكه، فتنقلنا بين الموضوعات بلا توقف، وحوطنا فيضان الأفكار اللانهائي.

تحدثنا عن السينما، عن الفن، عن كل ما هو جميل، كعادتنا. أخبرني عن حبه لمشهد السيارة الحمراء الشهير بين جوني ديب وآمبر هيرد في فيلم "يوميات الروم"، وأخذ يكلمني عن الرومانسية الزائفة التي تعج بها الأفلام السينمائية.

أخبرني بحقيقة أن الرومانسية السينمائية بمثابة الوهم والزيف والمبالغة، وتحدث عن فكرة التطبيق وطريقة التوظيف وهيئة النقل وأسلوب العرض. تابع كلماته معبرا عن إعجابه بجميلات

هوليوود، وطريقة الترويج لهن رغم الزيف الذي تعمد إليه والوهم الذي تعتمد عليه.

وقد أخبرته بحقيقة أنني كثيرا ما وجدت جميلات السينما الفرنسية أكثر رونقا وعفوية، وهو ما دفعني باستمرار إلى متابعة أعمالهن والتأمل في حلاوة هيئاتهن. لكنه سرعان ما أخبرني بأنه من الواجب علينا ألا نتأمل النساء ومن الضروري أن نغض الأبصار.

أحسست وقتها بأنني كنت في مشهد خيالي، مشهد من تلك المشاهد التي تعج بالهراء وتبتعد عن الحقيقة والواقع، فتخلط كل ما يمكن أن يخلط دون العبء بالنتيجة والشكل النهائي للفكرة. فقد كان يحدثني عن غض البصر بينما كانت الخمر تحوطه وكانت يده مشغولة بالتنقل بين الكؤوس وعناصر العربدة، وكأنه قد كان بمثابة الشيطان الذي ألف الوعظ، فأصبح معتادا على التنقل بين الخطايا رغم حثه للآخرين على الابتعاد عنها والتحرك دون الاقتراب منها.

انتقلنا بعد ذلك إلى التحدث عن الموضوع المعتاد، العمل. سألته عن موعد العودة، رغبت في التعرف على نيته الخاصة بالتطرق إلى أعماله من جديد، كنت منتظرا لإجابته بشدة، وكنت راغبا في إعلانه عن عودته، رغم علمي المسبق بحاله وصراعاته الداخلية التي لا أعرف من أين نشبت.

نظر إلى بنظرات غريبة، نظرات كان القلق مهيمنا عليها، فحاولت تهدئته وحثه على الهروب من الوحل الذي وقع فيه. لكن محاولاتي باءت بالفشل، لأن الإنسان عنيد بطبعه، عنيد

بشدة، خاصة عندما تحدثه عن خطئه أو تفصح له عن حجم الورطة التي أوقع نفسه فيها.

كانت الدوغمائية مصدر إعراضه عن الإنصات إلى أفكاري، وكان الاعتزاز بالرأي حائلا كبيرا بيننا، فصمم على المضي في طريقه الأهوج، وصممت على معتقداتي وآرائي.

انتهت السهرة ليلتها بمشاهدة فيلم يدعى "مدريد 1987". كان فيلما غريبا يحكي عن لقاء بين أستاذ وطالبة، ويرصد التطورات المصاحبة للعلاقة الجامعة بينهما، والغريب في الأمر هو أنهما قد احتجزا في النهاية داخل الحمام، والأكثر غرابة كان يكمن في التفلسف الذي شرعا فيه بمجرد أن حبسا، وكأن الاضطرارية التي شكلت سمة اللقاء قد ضغطت علي العقل فأنتجت الفكر، لكنه رغم ذلك كان فكرا غريبا تمحور حول الكثير من الأمور وتأثر بالعديد من القضايا التي شكلت العواطف جزءا منها ولعبت الأفكار الفلسفية دورا كبيرا فيها وفي التعرف عليها والتطرق إلى أبعادها وجوانبها.

بعد ذلك، قفزنا إلي بحر النوم، قفزنا إليه بعد ضعف نال منا وهشاشة شكلت عواطفنا، فسرعان ما نمنا وسرعان ما حلمنا. حلمنا بالكثير من الأمور وأخذنا العقل إلي حوارات غريبة وبقايا أفكار عجيبة وأمور قد كبتت وذكريات قد نسيت.

الحلم ضرورة، الحلم بأشكاله المختلفة أمر عظيم، سواء كان حلما يرصده عقل مجهد قد قفز إلي بحار النوم، أو حلما يرصده العقل كوسيلة للتحفيز والتقدم إلى الأمام.

لطالما كنت حالما، رغم السوداوية التي تشبعت بها الأجواء، وكثيرا ما كنت فرحا، رغم علمي بالحقيقة الجارحة، الحقيقة التي رغم كونها جارحة تبقي في نهاية المطاف الحقيقة!

-27-

فقدت الشغف مؤخرا بالكثير من الأشياء، غابت عني فكرة الزواج، ولم أعد قادرا على مواصلة العمل. نال مني ما نال من سيدي، يبدو أننا قد أصبحنا مرهقين وعاجزين عن متابعة أمور الحياة التي لا حصر لها.

العمل لم يعد كما كان، خسرت الشركة الكثير وأخذت الأرباح في النزول، نزول لا يعرف توقفا ولا يدرك ثباتا، فأصبحت بيئتنا حزينة، وقطعت علاقة السيد "ثابت" بعائلته المبجلة، بعد أن علم أفرادها بتقصيره الشديد وعبثه غير المبرر.

ورغم ذلك، لم يكن تقصير السيد "ثابت" السبب الوحيد للهبوط، فالعمل لم يكن بالكفاءة المطلوبة، والفريق لم يكن مناسبا للمرحلة العسيرة التي اقترنت بالكساد الاقتصادي الكبير وقتها.

حاولنا كثيرا أن نعيد المجد إلي أعمالنا، قمنا بالكثير من أجل الكيان الذي سهرنا من أجله، لكن التعمير قد نال منه التنكيس، والهبوط مثل محور الوجود، فخيم الصمت علينا وأصبحنا في ذهول تام.

كان الملاذ في جلساتنا الثقافية التي كنا نعقدها بعد حفلات العربدة الجماعية، ورغم ذلك، لم أكن جزءا من هذه السهرات، بل كنت متابعا لها من بعيد، فلم أعد محبا للمشاركة فيها، ولم يعد سيدي قادرا على إقحامي في بيئة المجون الخاصة بها.

الغريب في الأمر هو أنني كنت أجلس معه في كل مرة بعد رحيل الحضور، لأجده في حالة من التعجب والذهول والغياب عن الوجود. ورغم ذلك، كان يحاورني ويتنقل معي من موضوع إلى آخر بلا توقف. ورغم الهراء الذي أصبح ملازما لكلماته التي تخرج منه، والعبث الذي تسلل إلى أقواله وحكمه التي كثيرا ما علمني إياها ونقلها إلي فكري، إلا إنني كنت محبا للحديث معه، وكنت مخلصا له ومنصتا إلى كل ما يصدر عنه.

ففي إحدى المرات، تسلل الضحك إلى جلستنا وجعلنا كالمجانين، حيث بدأنا سهرتنا بالتحدث عن حرب فيتنام والأفلام التي وثقتها ورصدتها، وانتهينا بالتحدث عن الضرر المصاحب للتبغ والتدخين. والغريب في الأمر هو أن الكثير من الموضوعات التي شكلت حديثنا كانت عن أمور عجيبة لا أعرف من أين جئنا بها وإلى أين أخذتنا.

أعتقد أن ما حدث وقتها كان يتعلق بالقيادة، فقد منحت إلى الشخص الخاطئ الذي لم يكن في وعيه، وكان التلميذ حينها مجبرا على الإنصات إلى أقواله سيده رغم التيه الذي نال من عقله.

لقد منحت القيادة إلي السيد "ثابت" في كل الأمور التي خاضها في حياته، فكان سيد القرار في كل الأوقات، رغم طيشه وحكمته المشتتة التي لم تعرف التحول إلى واقع ملموس قط.

فعلى مدار التاريخ، دمر الكثير من الأذكياء أنفسهم، قتلوا مواهبهم وأتلفوا الحكمة التي منحهم الرب إياها. فأصبحوا مشتتين تائهين، وتحول نجاحهم إلى فشل كبير، وغابت عنهم القدرة على التركيز.

القدرة على التركيز، نعم، القدرة على التركيز، فلطالما كانت هامة ومحورية، وكثيرا ما كانت أمرا أساسيا فيما يخص النظام، النظام الذي يحتاجه الجميع من أجل الوصول إلى حالة من التناغم مع الحياة، مع متطلبات الحياة، مع كل ما تعرضه علينا وكل ما تقدمه لنا.

-29-

رغم اعتقادنا بالقدرة على بلوغ النظام، ورغم الكلمات العديدة التي تخص التناغم مع الحياة، إلا أن الأمر لا يسير كما يخيل إلينا والحياة لا تتماشي مع كل ما نفكر به.

فالعقل يقدم الكثير من التخيلات التي لا تمت إلى الواقع بصلة، والزمن يتلاعب بنا ويلتهم كل شيء في لمح البصر، حتى اللحظات السعيدة، تلك اللحظات التي نبذل الجهود من أجل بلوغها، تلهتم في نهاية المطاف.

لقد أحببت دائما التنزه وسط المساحات الخضراء الشاسعة التي تميزت بها الكثير من المدن الجديدة المغلقة، تلك المدن التي حوطتها الأسوار وجعلتها في معزل عن الكثير من الأمور. وكثيرا ما تنزهت مع السيد "ثابت" وسطها بينما كان يصاحبنا دوبرمان غريب من النوع الذي لطالما وضعه المخرجون في أفلام الرعب خاصتهم. وكانت الأحاديث تتسلل إلى بيئتنا في تناغم تام، تناغم عجزنا عن تحقيقه فيما يخص أمور الحياة.

تميزت الكثير من أحاديث البشر بالتناغم، شملها الانسجام وسيطرت عليها أحاسيس الراحة والسكون، ورغم ذلك، لم تقدم لهم فائدة واضحة في الكثير من الأحيان ولم تتحول إلى شيء مثمر بأي شكل من الأشكال.

تحدث الكثيرون عن المشاريع، تحدثوا عن الأرباح والصمود الدائم، تكلموا عن كل ما يعبر عن قوة الإنسان وقدرته على مسايرة الأمور. ورغم ذلك، نال الهبوط من الجميع، نكست

الأعلام، رفعت الرايات البيضاء في نهاية المطاف، ووضعت الأجساد في توابيت لم يشعر من بداخلها بماهيتها أو بما يحدث خارجها.

فوقتها، غاب عنهم الإحساس، وصعدت الأرواح إلى السماء، لتجزي كل نفس بما سعت. ولعل نزعتي الدينية المتأصلة قد ساعدتني في الهروب من بيئة الفجور التي سيطرت علينا، ومن الممكن أن الأمل الذي لطالما عرفت به قد أعانني على التخلص من أحاسيس التشتت التي تزايدت عندي بعد الركود الذي نال من العمل.

وقد أدركت مؤخرا أن التلاعب الذي قمنا به فيما يخص الكثير من الأعمال والحرام الذي تسلل إلى المسار، كانا بمثابة الخاتمة السيئة التي أخذتنا بسهولة إلى الهاوية وألقت بنا في أتون الجحيم دون مبالاة ترصد أو اهتمام يذكر.

-30-

تركنا الهموم وراءنا، لم نعد نعبأ بشيء، لم نعد نريد سوي الطمأنينة، لم نكن نري إلا السعادة. هكذا كان حالنا، هكذا أصبحت حياتنا، هكذا عشنا وتفلسفنا.

في إحدى المرات، جلسنا سويا نتحدث عن روايات ميلان كونديرا، تنقلنا بينها كما يتنقل القرد بين فروع الأشجار، تحدثنا عن الهوية، والجهل، والخلود، وكائن لا تحتمل خفته، والحياة في مكان آخر. وأنهينا حديثنا بالتطرق إلى كتابه "فن الرواية". وعندما تطرقنا إليه، استدعي عقل السيد "ثابت" كتابا آخر يحمل نفس العنوان، نعم، إنه "فن الرواية" لكولن ولسون.

يومها، تطرقنا إلى الكثير من الأمور، تنقلنا بين العديد من الموضوعات، وكلما راودتنا أفكار عن العمل لم نعبأ بها، وكلما تسللت إلينا أحاسيس الحزن والتشتت بذلنا جهدا كبيرا من أجل تجاهلها والتخلص منها ومن تبعاتها المؤلمة التي كانت تشبه الطعنات في الصدور.

لا يمكنني أن أنسي نظرته يومها، نظرة السيد "ثابت"، تلك النظرة التي أخبرتني بحجم الضرر الكامن بداخله، ذلك الضرر الذي نجم عن الصراعات العديدة التي شهدها مؤخرا، تلك الصراعات التي لم يكن توقف العمل مصدرها فحسب لكن الكثير من الأمور الأخرى كانت قابعة وراءها، بل ربما كان تدهور الأعمال أقل مسبباتها وأضعف العناصر المؤدية إليها.

إن فقدان المعني أمر حزين، أمر يحمل وراءه الخيبة والضعف والهشاشة. فعندما يعجز الإنسان عن إيجاد المعني، تتسلل السوداوية إلى الأرجاء، وعندما يشعر المرء بالشفقة تجاه نفسه، تظلم السماء وتمتنع الأمطار عن الهطول.

لطالما انتظرنا هطول الأمطار. كثيرا ما وقفنا مستعدين للترحيب بها، لكنها لم تأتنا قط، لم تطرق أبوابنا، ولم ترغب في أن تحل علينا. كنا ننتظرها حتى لو كانت الزيارة خاطفة، كنا في انتظارها لكنها لم تفكر بنا بأي شكل من الأشكال، وكأننا لم نستحقها قط، وكأننا لم نكن مؤهلين لاستضافتها والتعامل معها. نعم، إنها الحقيقة، تلك الحقيقة التي نخاف من أن تكشف، لأنها إذا كشفت، انكشفت لنا جروحنا وأصبحت بعيدة كل البعد عن الالتئام.

-31-

كثيرا ما تحدثت مع السيد "ثابت" عن الحياة، عن مجراها، عن أوهامها وصراعاتها. ولطالما نظرت إلي فرحة الطفل الصغير بعلكة أو حلوي من نوع ما، نعم، تلك الفرحة بالأشياء الصغيرة.

تلك الفرحة التي تتآكل مع الزمان، تتآكل حتى لا يبقي منها شيء يذكر، وكأن تحقيقها أصبح مرهونا بتوافر الكثير من العناصر التي لم نعهدها من قبل. لكن الحقيقة تخبرنا بأننا قد رأينا كل شيء، فقد جعل الزمان من كل شيء أمرا مألوفا وبث الاعتيادية في الأرجاء فصبغ الوجود بصبغة التأقلم.

إن التأقلم ضروري وهام، لأنه يمنح العقل القدرة على التفاعل بسرعة ويقلل من مجهوداته الخاصة بالإدراك، لكنه في نفس الوقت يضخ الملل في العروق ويبث اللامبالاة في الأنفاق.

ورغم فكرة التأقلم والتكيف، ومحاولة العقل البشري أن يطبقها باستمرار، إلا أن عدم الانسجام قد يهاجمنا بين الحين والآخر. فقد قرأت أن الإنسان لا ينسجم بسهولة مع البيئة المحيطة، وهو ما يختلف عن الحيوان الذي ينسجم بتلقائية مع كل ما يحيط به.

أعتقد أن التناقضات قد نالت من أفكاري والمفارقات قد تسللت إلى التجربة، فجعلتها مفعمة بالعشوائية وعدم الإدراك. لكن العشوائية قد تنجم عن غياب القدرة على الفهم، فقد يكون كل شيء منظما، ورغم ذلك قد يمنعنا ضعف قدراتنا من الوصول إلى الحقيقة ويبعدنا عن بلوغ نقطة الوعي والتمكن.

إن الصراعات لا مهرب منها والنزاعات لا مناص من أن نجبر على التفاعل معها والعمل على حلها والتخلص من تبعاتها وعواقبها. ومع كثرتها، تتصاعد رائحة العشوائية وتشحن النفوس بالاضطرابات وتسيطر على المرء الكثير من المسائل الكبيرة وتحوط التجربة بالصرخات والصيحات.

إن الحياة تحتاج إلى الأقوياء، تحتاج إلى من يتجاهل الكثير من الأشياء، لأن التجاهل يمثل الحل الأمثل في التعامل مع الأزمات. لكنه تجاهل يتعلق بالأفكار، أي أنه من الضروري أن نسرع بالبحث عن الحلول دون التفكير الزائد عن اللزوم.

الأرباح تنخفض بغرابة، الشركة تتهاوي بسرعة شديدة، والحلول غائبة، والكوارث لا تحصي. إنها النهاية، نعم، إنها النهاية، نهاية السيد "ثابت"، نهايتي، نهاية مجد العائلة.

ورغم ذلك، لا يمكنني أن أتجاهل أعمال العائلة الأخرى القائمة في البلد. لكن ما أعرفه حقا، هو أن نجاح الأعمال بالقاهرة كان عظيما وكان قادرا على الوصول إلى العالمية، وهو ما غاب عن الأعمال بالبلد.

قتل الهبوط الأمل، وتضعضع الوضع فأصبحت الفضيحة جلية، ونشرت الكثير من الفضائح والأخبار الشائنة عن السيد "ثابت" وعني.

نعم، لقد شمل الهلاك كل شيء، فنال من السمعة ودمر الأعمال وقتل الأحلام وسيطر على المسار. فهدم الكيان وسقطنا في بحر الأوهام.

وقد تسلل الاضطراب إلى العقول والأجساد، وسيطر الصراع على كل العاملين بالشركة، فغادر الجميع العمل وأصبح المكان مهجورا وبعيدا عن أن يكون قابلا للسكن أو العمل.

"يشعر الإنسان بأنه ليس في موطنه، ويباغته حنين هائل إلي الفردوس المفقود بين الحين، والآخر، وتشمله الكثير من المشاعر الفياضة تجاه الموقف، وتراوده العديد من الأفكار الوجودية لتدمجه مع بيئة متأصلة من الصراعات، والاضطرابات. يبحث الكيان البشري عن اللذة، ويسعي جاهدا لإدراكها مستعينا بكل الوسائل الممكنة، وراغبا في بلوغ الاستقرار، وإدراك الطمأنينة، والوصول إلي بيئة الأمن والأمان. لكنه مُرغم علي الاندماج مع الصراع الوجودي الذي لا مناص منه، ومُجبر علي مقاومة العبث، والعمل علي خلق المعني، وإضفاء القيمة علي تجربته الوجودية الخاصة. وفي منتصف الطريق، يتساءل عن معني وجوده، ويتحقق من لذات الحياة المختلفة ساعيا نحو فهمها، وإدراك معانيها. وفي نفس الوقت نجده منغمسا في حالة من التساؤل الدائم عن هذه اللذات، وعن غموضها العجيب، ومكمنها الخفي، وهدفها المستتر. يتساءل .. من أين تنبثق هذه اللذات؟ وأين تكمن نهايتها؟ وهل تنحصر في الملذات الحسية، والمتع الذهنية؟ أم تمتد لتشمل الروح، ولتتجاوز الجسد؟ وهل من الممكن للكيان البشري أن يتجاوزها حقا؟ وهل من الممكن له أن يبلغ النرفانا؟ وهل تندرج تحت بند الحقائق؟ أم تنبع من الأوهام، وتؤدي إلي الخيالات؟ .. تلاعب هذه الأسئلة الكيان الإنساني بشكل دائم، ولا تعيقه من التحرك، والتفاعل لكنها تراوده علي فترات متقطعة؛ لتملأه بحالة عميقة من الإحساسات الوجودية، والتأملات الفلسفية الهادفة نحو إدراك المعني الشامل للتجربة البشرية الفردية، والجمعية علي السواء".

لقد قرأت هذا النص في كتاب وجودي قصير يدعي "اللذة الغامضة للاشيء"، عمل فلسفي صدر مؤخرا وحقق ضجة كبيرة على شبكة الإنترنت، ولم يكتف بذلك بل أصبح واحدا من الكتب التي يبحث عنها باستمرار من خلال محرك البحث الخاص بجوجل.

راودتني الكثير من الأحاسيس بينما كنت أتنقل بين صفحاته، شعرت بأنه كان يتحدث عني، كان يرصد حياتي وحياة غيري. عبر عن مشاعر الحيرة والفقدان، تطرق إلى ضربات الخلل وعدم الاتزان، وركز على محاولات الصمود والنجاة.

تحدثت مع السيد "ثابت" عنه، ناقشنا أفكاره، حاولنا أن نتجاوز أزمتنا بالاعتماد على ما يبثه فينا من طمأنينة استمدت عناصرها من إخباره إيانا بحقيقة الحياة وطبيعة الوجود ومنطقية الصعود والهبوط.

-33-

"ومن الممكن بسهولة أن نتأمل معاً لوحة "متجول فوق بحر الضباب" لكاسبر ديفيد فريدريك، والتي تهتم بإظهار العنصر الرومانسي المتمثل في وقوف بطل اللوحة علي القمة العالية لأحد الجبال، وتأمله في أبعاد المنظر الطبيعي الماثل أمامه، والمُحاط بالضباب، وفي نفس الوقت، يظهر الطابع الوجودي عبر لمسات ريشة فريدريك بعرضه لفكرة الضباب، وسيطرته علي مستقبل الإنسان، وبثه للرعب في أعماقه كنتيجة لجهله بمستقبله، وعدم علمه بمجريات الأمور القادمة المهيمنة علي مسارات حياته الغامضة، وهو ما يؤكد حقيقة سيطرة الواقع علي فكر الرومانسيين، وعدم قدرتهم علي تجنب أركان الأزمة الوجودية، وغياب الإمكانيات اللازمة للعزوف التام عن الواقعية المتأصلة بالرغم من اعتمادهم علي الخيال، والعاطفة، وسعيهم الدائم نحو التقليل من ثوران العقل، وتمكن الفكر".

كان هذا النص واحدا من النصوص التي توقفنا أمامها، لنناقشها عن كثب. تحدثنا عن تأثير الرومانسية على الفكر، تكلمنا عن قدرة العنصر الرومانسي على تثبيط ثوران العقل من عدمه، وأنهينا حديثنا بالاتفاق مع الفكر الذي يعرضه النص، والذي يؤكد على أن الرومانسية عاجزة عن التخلص من مجريات الواقع، ويبرهن على أن التعامل مع الحقيقة أمر لا مناص منه.

الضباب في كل مكان، الرؤية لم تعد كما كانت، الأمور تزداد تعقيدا، النظام يظهر لنا على أنه عشوائية لعجزنا عن إدراك الحقيقة، والحياة تمر في لمح البصر.

إنه الوهم الذي سيطر علينا منذ البداية، إنه العبث الذي شملنا منذ بادئة الطريق، فقد كان الأمر واضحا لكننا لم نلتفت، وكان كل شيء جليا لكننا قد عمدنا إلى الكذب، الكذب على النفس، نعم، الكذب على النفس وما يصاحبه من أوهام وضلالات.

كثيرا ما يحوط الإنسان نفسه بالضلالات، كثيرا ما ينخرط في حياة مفعمة بالخيالات والأوهام، وعندما يدرك الحقيقة في نهاية المطاف مجبرا، يسرد كل شيء أمامه، يسرد كل شيء، ليعكر صفو مزاجه.

في يوم تعيس، لقي السيد "ثابت" حتفه إثر حادثة طريق نجمت عن الإسراف في معاقرة الخمور. وقد كنت وقتها مشغولا بالكثير من الأمور التي تخص ممتلكاته وكان الأمر بالنسبة إلى بمثابة الكارثة.

تبخر الرجل في لحظة، تبخرت الأحلام والأمنيات، وتبخرت الصراعات وجولات الهروب التي كان يعمد إليها باستمرار. وقد تذكرت وقتها نصا من نصوص قاموس فولتير الفلسفي، حيث كان يقول "يستلزم عشرين عاما إخراج الإنسان من الحالة النباتية التي يكون فيها داخل رحم أمه، ومن الحالة الحيوانية الصرفة التي تشكل معظم طفولته المبكرة، إلى الحالة التي يبزغ فيها النضج العقلي للشخص. واحتاج الإنسان ثلاثين قرنا كي يتعلم القليل عن بنيته، وربما يستغرق زمنا لا نهائيا لتعلم شيء عن روحه. أما موته فيحتاج لحظة واحدة".

نعم، يحتاج موته إلى لحظة واحدة، لحظة واحدة تمثل الفاصل بين الوعي وغيابه، بين الوجود والتلاشي، وبين الإدراك والفراغ. نعم، نحن نعيش لغزا نعجز عن فهمه، يبدأ بولادة مشرقة تحمل وراءها الكثير من الخفايا، ويمر بصراعات عديدة ومشاكل كثيرة، لينتهي بالتلاشي التام، التلاشي الذي يجعل من الإنجاز موضعا للشك ويجعل من الوجود موضعا للتساؤل.

ورغم ذلك، لا يمكننا أن ننكر حقيقة أن كل شيء في حياتنا خاضع لحكمة الله وإرادته التي تتحكم في كل شيء وتحرك كل دابة.

لقد رأيت دائما أننا نشترك مع الكائنات السفلية والحيوانات في الكثير من الأمور. ورغم بديهية الأمر وكونه معروفا بين الجميع، إلا أن الفكرة كانت دائمة تراودني وكانت تضايقني في الكثير من الأحيان.

إن تعقيداتنا تحول بيننا وبين الوصول إلى العفوية وإرضاء الدواخل بسهولة ويسر. إننا من نصنعها، والغريب في الأمر هو أننا نصنعها من أجل أن نمنح أنفسنا رونقا خاصا، رغم أن الغرائز البهيمية هي التي تحركنا في نهاية المطاف.

ترقد في العمق وتلاعبنا، وفي نفس الوقت نسعى لإرضائها بينما ننظر إليها من الأعلى معتمدين على شموخ زائف ووهم لا فائدة منه سوي التخدير، التخدير الذي لا يعرف نهاية.

إنه الوهم، يا سادة، إنه الوهم الذي عمدنا إليه باستمرار وعمد إليه كل إنسان عاش التجربة، تلك التجربة المكررة، نعم، تلك التجربة المكررة التي لا تعرف توقفا أو سكونا.

تسرب الحزن إلى الأجواء، تسلل إلي، وإلى عائلة ذو اللحية الحمراء، وإلى أصدقائه وفتياته. وقد اشتدت الدعوات وأخذنا ندعو اللّه أن يرحمه ويغفر له ويدخله دار النعيم.

-35-

غاب الرجل عن الساحة وتلاشت دوغمائيته التي لطالما عرف بها، واختفت كل الصراعات الداخلية التي لطالما هيمنت عليه، اختفت في لمح البصر.

لقد بحثت وقتها عن الحب والحنان، تزوجت من امرأة جميلة، عملت بإحدى الشركات العقارية، وحاولت باستمرار أن أتجاهل تلك الأحاسيس التي كانت تراودني فيما يخص السيد "ثابت" والأمور التي جمعت بيننا على الدوام. وقد مرت الحياة سريعا ووجدت نفسي عجوزا ينظر إلى الماضي كأنه البارحة ويتأمل الهبوط بعد الصعود بلا مبالاة.

ربما يمثل الأمر برمته حالة من الوصول إلى مرحلة تكامل الذات، تلك المرحلة التي لطالما تحدث عنها إريك إريكسون مؤكدا على حقيقة أن بلوغها يحتاج إلى الحكمة، تلك الحكمة التي تساعد المرء على تقبل كل ما تعرضه علينا التجربة كما هو، وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى الشعور بالرضا التام.

لقد مررت بالكثير من التجارب، راودتني الكثير من الأحاسيس، وعرفت الكثير من الأمور. واكتشفت في نهاية المطاف أن الحل الأمثل للإنسان يكمن في تقبل كل ما يحدث حوله في صمت تام، نعم، في صمت تام!

تمت

خاتمة

تحاول هذه الرواية أن تمهد الطريق لمدرسة جديدة في الكتابة، مدرسة تحاول أن تواكب العصر الحديث وسرعته التي لا حدود لها. فقد انخفضت معدلات القراءة بشكل ملحوظ وقل عدد العقول المثقفة القادرة على التحليل والإنتاج، وهو ما دفعني إلى محاولة انتهاج طريقة جديدة فيما يخص عملية الكتابة. فعمدت إلى القصر، واهتممت بالدواخل أكثر من الاهتمام بما يحدث في الخارج، وحاولت باستمرار أن أتطرق إلى بواطن الأمور وخفاياها، وهو ما أدي إلى تمكن الرمزية من أعمالي. إن البناء المعهود فيما يخص فن الرواية غائب في هذه الحالة، والطريقة المستخدمة في الكتابة غريبة وسريعة، وهو ما اعتمدت عليه أثناء تنقلي بين الصفحات. وأتمني أن أكون قد حققت المطلوب ووصلت إلى الهدف المنشود.

الرواية القادمة: نباح الكلاب في الباحة الخلفية
المؤلف: معتز عرفان
مؤلف وناقد وباحث وروائي وأديب وإعلامي

الدوغمائي ذو اللحية الحمراء .. معتز عرفان

دار عرفان للنشر .. مؤسسة معتز عرفان للثقافة و الفنون